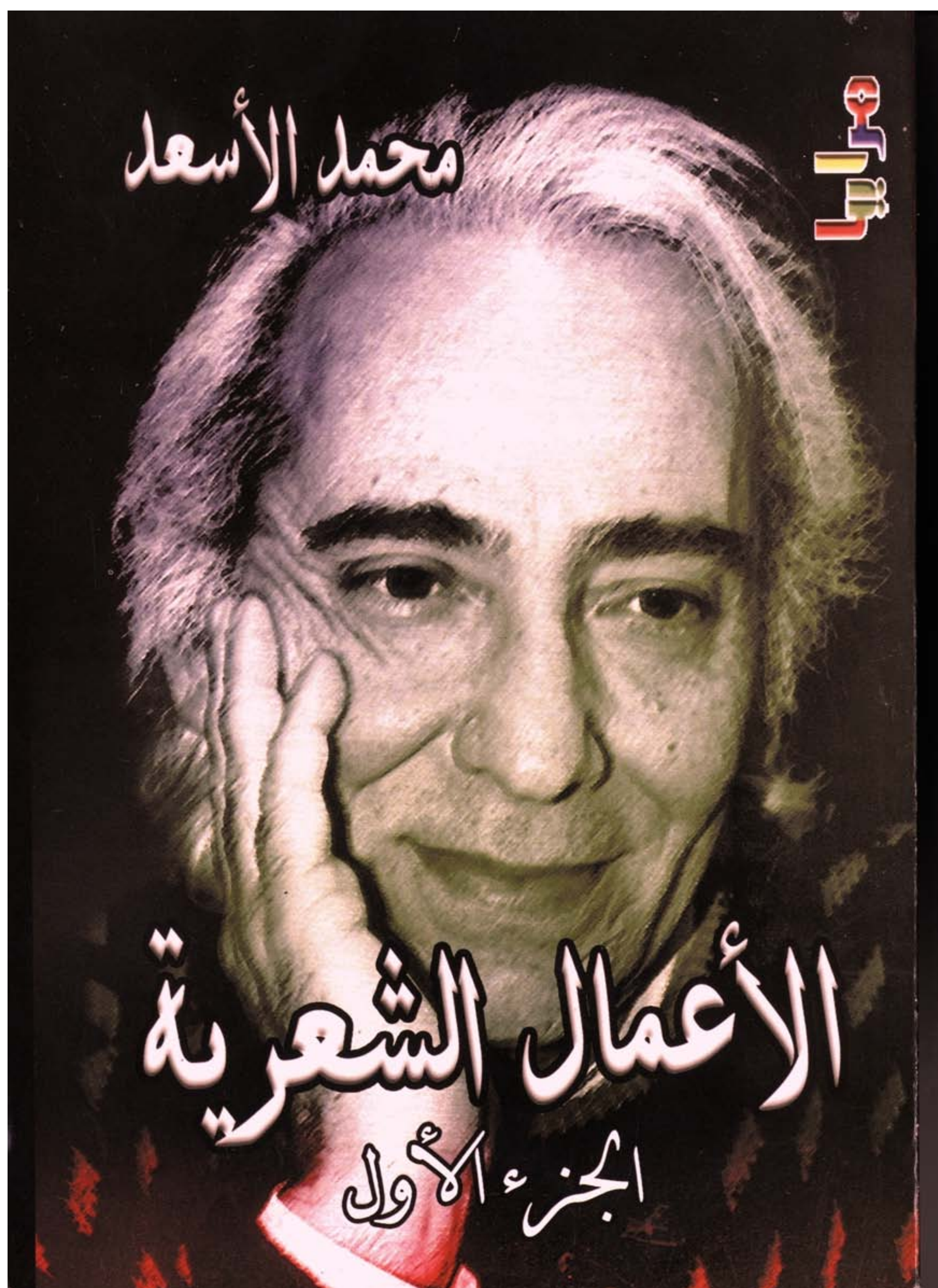

محمد الأسعد
الأعمال الشعرية
الجزء الأول

المجموعات الشعرية:

إهداء

إلى الثلاثة الأعزاء
وصال، غسان، أناهيد
كلُّ شيء يمضي
وتبقى
ظلالُ الكلماتْ

محمد الأسعد

ظهيرة العصافير

يوليو 2005

(1)

أشجارُ الخيزران
تنتظر لمساتِ الريح
اصغِ ...
ألا تسمع أصواتها ؟

(2)

بين عظامِ الموتى
وهياكلِ السفنْ
يرتجفُ الماءْ
تمرقُ أسماكٌ فضيّةْ

(3)

دعي للمطرْ
أن يستقرّ في الأعماقْ
في الترابِ المعتم
لهذه الدفلى البرّيـةْ

(4)

يا لهذا الصديق !
يداهمه النعاس
عند بوابة أحلامهِ

(5)

ظهيرةٌ
بين الأغصانْ
ظلٌّ عصفورٍ وحيدْ

(6)

من ندى الليلِ قطرةٌ
أو قطرتان
على رسلكَ أيها الغصنُ الشائكْ !

(7)

نوارسٌ بيضاء
تحطّ في المياه ِ العميقة
بين ظلال ِ السفن
وشباكِ الصيادينْ

(8)

من تلك الأرجاء
نداءَ الفواختِ ما أسمعُ
أم عزيف الريح ِ
بين أشجارِ النخيل ؟

(9)

هاهي الظهيرةْ
ظهيرةُ العصافير
وسدرةُ البيتِ
والغيومُ البيضاءْ

(10)

أيةُ أمطارٍ
تهدهدُ هذه القريةَ النائمةْ
تحت أشجارِ العرفجْ

ورمالِ الصحراءْ ؟

(11)

حيث كنّا
ليس سوى الصّبارِ
والحجارةْ

والنسيمِ العابرْ
بين أحراشِ الزيتونْ

(12)

رائحةُ النرجس !
لابدّ أنه الليلُ
والطرقاتُ الموحلةْ

(13)

شوارعٌ
وأصواتُ عابرينْ
وفراغٌ بين الكلمات
كل شيء مثلما كانْ

(14)

قصور الحمراءْ !
موسيقى العازفِ الأعمى
تتلمسُ في العتمة
أجسادَ المحظياتْ

(15)

صفاءٌ بلا لونٍ
يستبقُ النهار
يمسّ مسّاً عابراً
أطرافَ الأفاريــزْ

(16)

عجوزٌ يطلّ من النافذة ...
يا إلهي
كم تطايرت سريعاً
أزهار البوكنفيليا !

(17)

فراغٌ بين نقش ٍ
وآخر
على لوح ٍ مسماري
بحجمِ راحةِ اليد ...
ربما تعذّر نطقُ الكلماتْ

(18)

بنشوة ِ من اكتفى
بجرعةِ نبيذْ
يطوي الشاعرُ أوراقهُ
على سطوره ِ الثلاثةْ

(19)

حجارةُ الطريقْ
تغمرها أعشابُ الصيفْ
ربما كانت تحفّها الأعمدةُ
ذات يوم !

(20)

جدارٌ أعمى
قوسٌ حجريٌّ
مقهى
لا صوتَ في هذه الأنحاءْ

(21)

كم هي حيّةٌ هذه الحجارةْ !
تحزّزها الأزاميلُ
وخضرةُ الأعشابْ
منذ عصرِ البرابرةْ

(22)

من أرض ٍ مغايرة ْ
يعود الشاعر
بأصداف ٍ وأزهار ْ
وطيور ٍ غامضة ْ

(23)

يا شجرَ الصبارْ
كم مرّةٍ
أزهرتَ في غيابنا !

(24)

في تلك الأغنية وحدها
يتفتح الياسمين
أكثر من مرّةْ

(25)

كم هو ناءٍ
صوت الفاختـةْ
في أمسياتِ الصيفْ

أفاريزُ النوِّير

فبراير _ يونيو 2005

(1)

ليتني
عبرَ هذا المساء والأشجارْ
صورةٌ مرسومةْ
بخطوطٍ بسيطةْ

(2)

أزهارُ النويّر ... !
زقزقةُ عصافير الدوري
تتباعدُ
في الضبابِ الخفيفْ

(3)

يالهذه ِ الأشجار ْ !
لاتعرف ُ
إنها تلقي
ظلاً

(4)

تتبادلُ الأحجارُ والنجومْ
الصمتَ
والصمتَ وحدهُ

(5)

تحت رمالِ الصحراءْ
يسمعُ المتوحدون
أنشودةَ المطرْ
تروي حكاياتهمْ

(6)

بيوتٌ وتلالْ
وجبالٌ بعيدة
تتذكرُ دائما

(7)

يصغي الناسكُ صاعداً
من عمقِ الوادي
لاينظر إلى الوراءْ
إلى أزهارِ الحناءِ البيضاءْ

(8)

إلى إين نمضي
في هذا الصفاءِ الشفافْ
صفاءِ الشتاءِ العميقْ
تحت أشجارِ التنوبْ ؟

(9)

تحت قمرٍ صافٍ
يسيرُ حجاجٌ على الطريقْ
تاركين لأطفالهم
تماثيلَ الوعولْ

(10)

لم يعد الأصدقاءُ يضحكونْ
في الحجراتِ الخشبية المطلة على البحرِ
ولكنني أسمعهم
في أحلامي
يتبادلون الأحاديثْ

(11)

أينما احمرّتْ
ثمارُ الصبّارْ
وتفتحت أزهارُ الدفلى
أكونُ في وطني

(12)

تحت شجرةِ حنّاءٍ ما زالتْ دافئةٌ
تبكي جوعها
كاهنةٌ بين الصخورْ

(13)

مقهى تحت الأشجارْ
أصواتُ عصافيرٍ
نتفٌ من ثلجٍ
بيضاءْ ...
كم أحبكِ أيتها الخضرةْ

(14)

على مرأى من أمواجِ البحرِ

يسألُ الباحثُ عن طائرهِ
سابئةَ الخمرةِ
والندى

(15)

الأصدقاءُ الصاخبونَ
في المقاهي

ليسوا ضيوفاً
بل لاجئينَ
من ظهيراتٍ بلا معنى

(16)

أكتبها
وتتلاشى
بين أصابعي ...

كلماتكِ أيتها الكرومُ
أحلامٌ
لاتصلحُ للورقْ

(17)

بعد أن هرمتْ أمّي
لم تعد تتعرف على الوجوهِ
والأصواتْ...

أغانيها
هي كلّ ما تتذكرْ

(18)

صيفُ المقابر المهجورةْ
يحوّلَ عجائزنا
إلى أزهارٍ
يوماً بعد يومْ

(19)

كلماتكم أيها الأجدادْ
تسكنها الريح
خاليةٌ من صمت قرانا
وعصافيرها العمياءْ

(20)

دقّاتُ الساعة
تمنحنا أياماً مشمسةً
وممطرةْ
صباحاتٍ وأمسياتْ ...
تغيّر السماءُ نورها
والإسفلتُ لونه
والريح وجهتها
والأشجارُ حفيفها

(21)

أحياناً
تنزلُ كلماتنا
الخرابَ نفسه الذي
تنزله خطواتنا بالأعشابْ
وصمتُنا أيضاً !

(22)

لايعود الأطفالُ الراحلونَ
على الطرقِ الترابيةِ نفسها
بل عالياً
عبرَ أغصانِ الزيتونْ

(23)

فيِ الفناءِ
تحتَ أشجارِ الخرّوبْ
يسقط الظلُّ
على وجهِ أمّي

(24)

في هذه العتمةْ
يواصلُ صديقي رحيلهُ
بأغنيةٍ
على شفتيهِ

(25)

حين انتشى الأطفالُ
فقدوا حذرهم
كان الخطأ
خطأ الجدران والسقوفْ
والسماءِ المفتوحةْ

(26)

فتاةٌ بلا اسمٍ
تحت قدّاحةٍ مزهرةْ
تبيع طيوراً حجريةْ
لأطفالِ العابرينْ

(27)

أيها الهنديُّ الصامتْ
ما الذي يعرفهُ
ويخفيهِ
أنينُ السيتارْ ؟

(28)

أكثر من دوريٍّ يتيم
يسقسقُ
بين أغصانكِ
أيتها السدرةُ الوارفةْ

(29)

صفاءٌ عميقْ
صفاءُ الثلجِ الأبيضْ
على قرميدِ الليلْ

(30)

يا أزهارَ البوكنفيليا الحمراءْ
هل أنتِ واثقةٌ
من رقّةِ الصيفِ
صيفِ الدموعِ المكتومةْ ؟

(31)

في بعض الليالي البيضاء
يمرُ يانتشيف الهادئ
بتمثالهِ الصامت
أمام حديقةِ بيتهِ

(32)

نصل إلى الليلة نفسها
والبستان نفسه
والبوكنفيليا نفسها
من ممراتٍ مختلفةْ

(33)

أيها الإخوة
نحن صامتون فقط
كائناتٌ بحريةْ
تطفو
وتعود صامتةً إلى الأعماقْ

(34)

لستِ ماءً في جرّة
أيتها الروح
أنتِ لونٌ ذهبيٌّ
بتلاتٌ
زهرةُ عباد الشمسْ

(35)

لم يترك النحاتُ العابرْ
غير الحجرْ
والنسماتِ القليلةْ
بين أشجارِ الزعرورْ

(36)

أسمعُ قيثارةَ الأعشابِ
في كل ربيعْ
تتحدث عن الأحبابِ الراحلينْ
عنكِ وعني
ستتحدثْ ذات يومْ!

(37)

أشجارُ اللوزْ
تصل بأزهارها البيضاءْ
إلى حافةِ الشباكِ المعتمْ!

(38)

يالهذه الحدائقْ!
لاتتوقف عن صمتها
تاركةً أبوابها مواربةً
كي ندخل في أحلامها

(39)

أظنها أغنيةُ المياهْ
تلك التي تترقرقُ
بين الأعشابْ
خلف جدرانها العالية

(40)

أبيضٌ كلّ شيءْ
السدرُ والنخيلْ
وصوتُ اليمامْ...
آه... أيها البيت النائي!

(41)

وحيداً
ينهمر المطرُ في الخارجِ
للحدائقِ والليلِ
والطرقاتِ البعيدةْ

(42)

بلاطُ ساحةِ نافونا يلتمعُ
تحت الرذاذِ
والغجرياتِ
والرسامينَ
وباعةِ الخرزِ الملوّنْ

(43)

يسير ناجي متمهلاً
في لوحةٍ على الجدارْ
طفلا ضائعاً
لم يعد يبحث عن أهلهِ
منذ زمنٍ بعيد

(44)

تتمايلُ في الريحِ
أزهارُ الدفلى
بيضاءَ
في المطرِ المسائي الخفيفْ

(45)

تساءلتْ وهي تبكي
هل توقف المطرْ ؟
هل سكنتْ
أوراقُ الشجرْ ؟

(46)

(47)

ثلجُ صوفيا
يغطي أطرافها المعتمةْ
يتحجرّ كل شيءٍ
غارقاً في صمتهِ

رأيتُ الصمتَ
تحت أنظارِ الجنودْ
يهبط فوق الشوارعِ البريئةِ
والأشجارْ
وبواباتِ المدارسْ

(48)

في آخر المشهدْ
ينظر طفلانْ
إلى عصفورِ الكناري الوحيدْ
في أقصى الصالةِ الخاليةْ !

(49)

في الحديقةِ المعتمةْ

تختفي الممراتْ
بياض ٌ هادىءٌ
بياضُ الثلج ِ المتساقط ْ !

(50)

طائر ٌ في إفريزْ !
ربما تحجرّت أغنيتهُ

ربما عادَ
إلى حالتهِ الحجريةْ
ربما
ضاعَ في الماضي

(51)

في أيامهِ الأخيرةْ
رسم ناجي أيقوناتِ قديسينَ
بدرجاتٍ لونيةٍ زاهيةْ

قاتمةْ
عميقةْ
ونائيةْ !

(52)

صيفُ روما
يالهذا الصيف ْ !
خضرةٌ بين الشقوقْ
نسيمٌ بين بقايا البيوتْ

(53)

تتردّد الريح ُ
بين الخمائل المهجورة ْ
والأعمدةِ الحجرية ْ
لاتلوي على شيء !

(54)

ذلكَ الصامتُ
بمحاجرهِ البيضاءْ
تجلببهُ الفراشاتْ
تمرُّ بهِ الريحْ

(55)

لاأسماءَ لها
ولكنّها تتفتحُ
واحدةً بعد أخرى
هذه الأزهارُ البيضاءْ

(56)

سريعـاً
يهبـطُ السنجـابُ الصغيرْ
ما أن يرمي الأطفـالُ
ثمـارَ الكستنـاءْ

(57)

مسـافران يتحدّثانِ
عن ضبابِ جبل " فوجي "
ونسيمِ الكرملِ
فوق أشجـارِ الزيتونْ

(58)

بين حجارةِ بيتي
تحت ظلالِ الخروبْ
يقف الصديقانِ
في الصورةْ
كما في روايتي تماماً !

(59)

سهولُ الفلاندرْ
غابةٌ
قصرٌ أبيضْ
عجوزان يعدان الطعامْ
لقطرِ النـدى

(60)

وأخيراً ...
سمعنا أصوات الصمتْ
500 قرية مدمّرة
تقصّ حكاياتها

(61)

أيـها الراويـةُ
خذ شيـئاً من بيتنـا
يدرأ عنكَ هبـاتِ الرياحِ
وارتجـافَ الظلالْ
في أعماقِ الليلِ الطويـلْ

(62)

أكثر من مدينةٍ
وراء الجبالْ
أكثر من قريةٍ
ينتظرني في حقولها
أطفالٌ يصطادون اليعاسيبْ

(63)

من الـذي تفتقـده
أيـها الدوري الصغير ؟

(64)

يتـرك الراحـلونَ ظلالاً
فوق الجدرانِ والأواني
والأشجـارْ
يترك الراحـلونَ
ظلالاً
بين الكلمـاتْ

(65)

بعد أن ينتهي من رسمها
يبتعدُ الرسامُ
خائفاً
يتطلّعُ إلى غابتهِ

(66)

من أيّ عصرٍ هذه الأغنيةْ
أيتها الراقصة تحت المطرْ
أيها المختلس النظراتِ
خلف الشجيرةِ المزهرة؟

(67)

بـرداءٍ بسيـطٍ
وقدمين عاريتـينْ
أتوارى بين البطمِ والآسْ
هابطـاً إلى عمقِ الـوادي

(68)

قليلون أصغوا
إلى هديل الحمائمْ
تحت أفاريزِ النوّيـرْ

تهمس البوكنفيليا مثقلة بأزهارها الحمراء

1996

هذه قصائدُ بحاجةٍ الى مدخلٍ، ليس لأنها غامضة، بل لأن وضوحها الشديد يجعلها كذلك لسببين: الأول، أنها لاتعلّق لها بأنماط ِالشعر العربي، التقليدي منها والمحدث، الموزون والمنثور، والثاني لأنها تحمل رؤيا مختلفة الى العالم غير ملموسة في الثقافة العربية.
سببُ الأختلاف، منبعها الشرقي لا الغربي. والذين اعتادوا على المنبع العربي التقليدي أو المنبع الغربي التقليدي الذي طبع بطوابعه الشعر العربي الحديث سيجدون في هذه القصائد ما لايفهمون. فهي تتجنب الأساسياتِ العزيزة للجمال الشعري المألوف: التشبيه والمجاز وتجريد الملموس وتجسيد المجرد، وتتمسك بتسمية الموضوع (موضوع الخبرة) مباشرةً. وهي تتجنب التشخيصَ أو أنسنة الأشياء. فالأنسانُ ليس مركزا بل هو خيط ٌفي شبكة كلية، وكذلك بقية الموجودات من ترابٍ ونباتٍ وحيوانٍ ونجومٍ وسديم.
يتأتي هذا التجنبُ من حاجةِ الفنان، والشاعرُ فنانٌ، إلى الإدراكِ في حدوده القصوى، وإلي أن يجسد تجربته الفريدة هذه في شكلٍ ملموس؛ التجربة وحدها. لاشئَ يشبه شيئاً في لحظة إدراك قصوى.
يمكن القول أن الأسلوبَ هو تشذيب الأداةِ إلى أدنى حدٍ ممكن بحيث لايقف إلا الأقلّ من الكلماتِ والشروح بين القارئ والتجربة. والنتيجةُ هي قصيدةٌ عارية لايتدخل فيها شئٌ بين الشاعر وموضوعه. المجازُ تدخل والتشبيهُ احتيال. الغايةُ هي التجسيد بحيث يظهر موضوع الخبرة بذاته الفذة من دون حاجة إلى إشارة الى شئ آخر غير ذاته. وحيث يستعصي التعبيرُ أمام الخبرة التي لاسابق لها، وهو عصي بالطبيعة في مثل هذا الموقف الصوفي (ذروة الموقف الفني من الوجود)، يلجأ النظامون إلى المجاز والتشبيه وكل القوالب المتداولة.
هذا النمطُ الشعريّ تعرفه الثقافةُ اليابانيةُ تحت عنوان "قصيدة الهايكو"، وله في تلك الثقافة شروطه وانتصاراته وهزائمه، وله امتداد لايعرفه الكثيرون عندنا في اللغاتِ الأسبانية والهنغارية والإنجليزية والألما نية ولغات أخرى. ولكن ماهو مأخوذ هنا في هذه المجموعة هو جوهر فكرة الهايكو: اللحظة الجمالية، أي لحظة الإستنارة التي تأتي بعد الأضطراب والتمزق وانقسام الوجود إلى ذاتٍ وموضوع (بدهيات الفكر اليوناني الذي يلقي ظله منذ أكثر من ألف عام على الفكر الإنساني) إلى اللحظة التي يشرق فيها نورُ اكتشاف الإنسان لكينونته العميقة في هذا الكون.
الهايكو اليابانية شكلٌ من أشكال هذه اللحظة الجمالية. شكلٌ دال على فلسفة رؤيا معينة يندرج في سبعة عشر مقطعاً تتوزع على ثلاثة سطور: خمسة مقاطع، سبعة مقاطع، خمسة مقاطع. ومدة ترتيلها لاتتجاوز مدّة النفس الواحد. ولكن لاضرورة تتطلب ابتكار نمط موازٍ لهذا الشكل الياباني في العربية. فوحدة الوزن العربية هي التفعيلة لا المقطع. كما أن إعطاء اللحظة الجمالية طابعا مميزاً يعاكس تنميط الأشكال وينسجم مع جعل الشكلِ مفتوحاً، مع الحفاظ على شكلٍ أقصر يجسد لحظة الحدس المباشر.

هنا في هذه القصائد يمكن الأحساسُ بنوعين من الإيقاع: الايقاع الخارجي المعتاد في الشعر العربي (وعماده المتحرك والساكن)، والايقاع الداخلي المعتمد على تدفق الصور، والذي يتبع نظام الجملة الموسيقية الحرة. في الايقاع الخارجي ابتعادٌ عن نمط شعر التفعيلة، ومزجُ تفاعيلَ من بحورٍ مختلفة في الهايكو الواحدة. قد يبدأ السطرُ، وليس البيت، بتفعيلةِ الرجز، تتلوها تفعيلة الرمل، ثم يبدأ سطر بتفعيلة الخبب ...وهكذا. المعيارُ هنا هو الإحساسُ بالتدفق الداخلي. مثلا قد تبدأ القصيدة بايقاعٍ بطئ تقوده تفعيلةُ الكامل، وقد تنتهي بتفعيلة الخبب للإيحاء بالتسارع.
صحيحٌ أن المزجَ كان أسلوباً اتبعه بعض النظامين في الثلاثينات، إلا أنه كان مزجا محكوما بالموتِ لأنه اعتمد مزجَ البحورِ لا التفاعيل ولا دقائقَ الأوتاد والأسباب. فكان مزجاً خارجيا بين قوالبَ لا مزجاً داخليا بين عناصر. مزجُ العناصر هو كيمياء اللغة لا مزج القوالب. وهذا هو ما يميز القصيدة القصيرة الحرة هنا حين تعتمد مزجَ العناصر. إنه أكثر جدة، فهو يخرج على نظام الشطرين ونظام التفعيلة المكرورة رغم عللها وزحافاتها.
هناك أمرٌ آخر تلتفت اليه الهايكو هنا، وهو إعطاءَ أهميةٍ لجرسِ الألفاظ وحركاتِ الإعراب والميزان الصرفي، فلكل هذه الجوانب دلالاتٌ شعوريةٌ في لغتنا العربية، ويمكن أن نجد اعتناءً بها في الموروث البلاغي أهملته قطعانُ النقاد والشعراء المحدثين رعونةً أو جهلا، وتمسكت به ذائقةُ البسطاء من الناس. وربما يفسر هذا الإهمالُ الحنينَ الذي لاينضب إلى الشعر التقليدي في أوساط عامة الناس: إنهم يفتقدون في الشعر الحديث ليس المألوف فقط بل ما هو جوهري في اللغة بوصفها فنا ممتعاً لامجردَ كلماتٍ ومعانٍ في سطور.
المنبعُ الثاني لهذه القصائد يأتي من مفاهيم المدرسة الألسنية في النقد المعاصر وتنوعاتها، وبخاصة في تشديدها على العلاقة الاعتباطية بين الكلمة والموضوع، والتمييز بين اللسان والكلام أي بين قواعد اللغة وبين اللغة في الأداء. ويأتي أيضا من فكرة مابعد ـ حداثية؛ الفكرُ ليس مرآة الطبيعة (ريتشارد رورتي).
مايعنيه كل هذا، أن العلاقة ملتبسة وغامضة جوهراً لاعرضاً، وأن الوجود الحق أو الكينونة العميقة بتعبير "هيدغر" منطقةٌ بين الحضور والغياب، مابين الخيط الأسود والأبيض. هي الوجودُ عاريا من الأسماء كما تنظر اليه عين طفل أو فنان في ليل الوجود قبل أن تتخذ الأشيا ءُ أسماء. لاحدّ للرؤيا ولا صيغةَ نهائية، بل ابتكارٌ متواصل للحضور، لاتفسيرَ ولا تحليلَ في الفن، بل إشارةٌ الى ماينبثق انبثاقا، وحيث للصمت ثقل الكلام ذاته.
يسمون هذا المابين أحيانا فراغاً أو خواء حياً أو فضاء أو صمتا بليغا مأهولا بالمعنى ولا معنى ومأهولا بالصوت ولا صوت، كأن الشاعرَ رسامُ الفراغ ذاته، أو صانعُ فخار علينا أن ندرك أن آنيته التي يصنع هي الفراغ بين جدرانها. الكلمات ليست كل شئ في القصيدة: هي كتلة الطين وماتحتويه من فراغ هو القصيدة.
وأخيراً، يأتي منبع هذه القصائد الثالث من اللغة البصرية، لغة العين واللمس والسماع أو الحواس كلها، لغة الحضور لا كما انعكس في لغة الذاهبين والحاضرين بل وكما سينعكس في لغة القادمين: لغة مفتوحة بلا يقين. يأتي الشاعر الوجودَ مواربة بلا يقينيات (اليقين هو اللحظة التي يتحجر فيها كل شئ) ويحوله الى احتمالِ وجود، أي أغنية. ومن الأفضل أن لايستعير السؤالَ الأبله عما تعنيه الأغنية، لأنها تحضر بكل بساطة مثلما يحضر طيرانُ الطير والموج ويمر النسيم (ويتمان).
هذا هو الموقف الذي يسمونه الإستنارة. ليس الحكمة بالطبع، بل جذرها الحي حين يندمج المشاهدُ بموضوع المشاهدة بلا غاية سوى الإندماج ذاته. لاتعليقَ هنا ولاتفسير حين يثيرنا الجميل، إننا نكتشفه فقط. لانقدم فكرةً عنه. هل يمكن صبّ طوفان من المشاعر في مساحة

بوصة على الورق؟ هل يمكن أسرَ السماء والأرض في قفص الشكل؟ كان هذا سؤال الصيني "لوتشي" ومازال سؤال الشاعر.

م. الأسعد

مندلينا

شجرةُ المندلينا
طافحةٌ فوق أوراقها الخضراءْ
أزهارُها الثلجيةْ

حبيبتي

حبيبتي
تفاحةٌ
في نداوةِ الصباحْ

ليل

هل كان السوسنُ ؟
هل كان النرجسُ ؟
هل كان ليلُ عينيكِ ؟

صباح

صباحٌ
وكمثرى
كم مرّ سريعاً هذا الليلْ !

فينيسيا

من النوافذ المضيئةْ
في آخر العتمةِ
تأتي ضجةُ أقداح النبيذْ

صوفيا

يالهذا الليلْ !
يأتي هادئاً
نحو أوراقِ الخريفْ

ذكرى

غيمُ الصباحِ الخفيفْ !
ربما تتناثرُ الآنَ
أزهارُ الرّمانْ

بحر

يهدأ البحرُ
عميقاً
تحت طوفانِ النجومْ

بيتولا

خفيفةً أوراقُ البيتولا
بيضاءْ
تتساقط في النهرِ المعتمْ

سحابة

غيومٌ بيضاءْ
تمرّ عالياً
فوق أشجارِ التفاحْ

خريف

ذات خريفٍ
بين الأشجارْ
أسمع ضحكاتِ الأطفالْ

قيثار

أكان ذاكَ
رنينَ قيثارٍ
وراءَ الليلِ والأشجارْ؟

حارسة الليل

في ضبابِ الفجرِ تصغي
حين يستيقظ لغطُ الناسْ
وسكونُ الأمكنةْ

حديث

أمكنةٌ مضاءةٌ
أمكنةٌ في العتمةْ
ربما ظلت تواصلُ الحديثْ

ظنون

خفقاتُ الريحِ بين الأوراقِ اليابسةْ
حفيفُ ثوبها
وراء البابْ

ذات يوم

ليلٌ
وعطرُ حديقةٍ
ونغمةُ ماندولينْ

عصافير

أسرابُ الدوري
حول النافورة
تتصايح في الظلالْ

دفلى

وحيدةٌ
هذه الدفلى
في باحةِ البيتْ
يتساقط المطرْ

سدرة

وحدها في الظهيرةْ
سدرةُ البيتِ تلقي الظلالْ
على الباحةِ الخاليةْ

امرأة وقدح

قدحٌ أزرقٌ
وجهٌ حجريٌّ
عينان مسبلتانْ

حديقتها

يأخذني الليلُ
إلى حديقتها
وكلَّ ليلْ

أندلسيا

شقائقُ النعمانْ
لاهبةً
تتغلغلُ في الخضرةِ الداكنةْ

كاميليا

مطرٌ... شبّاكٌ
تحت الأفريزِ المعتمِ
كاميليا مرتعشةْ

شفاه

أوائلُ الفجرِ
شفاهٌ عذبةٌ
تواصل الحديثْ

نساء رينوار

ضبابُ أزهارِ الكرزْ
رفيفُ المياهِ
ولمسةُ نورٍ في بياضِ الحجرْ

كنيسة سان بيترو

من الشرفة العاليةْ
يتأملُ مائةُ قديسٍ من الحجرْ
نافورةً صامتةْ

حديقة

أشجارها
ظلالٌ
في مرآةْ

عتمة

الليلُ نفسهُ
والندى والحديثُ ...
يا للعتمةِ الفاحمةْ !

وداع

خطواتنا
غمغمةٌ
على أوتارِ قيثارٍ بعيدْ

مطر

ما الذي
يبكيكِ
أيها المطرُ ؟

بلبل

بلبلٌ عابثٌ
أغنيةٌ تغرقُ
في حجرِ الليلْ

الأرجوان

أرجوانٌ
وندى
في هدأةِ الصباحْ

شجيرة

شجيرةُ الرمّان ظلٌّ اخضرٌ
زهرةٌ...
أو زهرتانْ

نوار

تحتَ رذاذٍ خفيفْ
يلتمع النوّارْ
في هذه البرّيةِ الشاسعةْ

اثنان

تمتزج الكلماتُ برنّاتِ الأقداحِ
بلمسِ الأيدي
تتموجُ في عمقِ الليلْ

بوكنفيليا

ذات مساءٍ في حديقتها
تهمسُ البوكنفيليا
مثقلةً بأزهارها الحمراءْ

أزرق

أحبتْ زرقةَ الياقوتْ
كم كان وحيداً
هذا الليلكْ !

في الضباب

ترتطم الأقدامُ بالحصى
هناك من يمضي وحيداً
في الضبابْ

دفلى

تحت نافذتي
مع هبوبِ الريحْ
تتمايلُ أشجارُ الدفلى

البط البري

في الطريقِ الى التلِّ
شاهدنا
أسرابَ البطّ البيضاءْ

جاردينيا

أتساءلُ
في أي حدائقَ مهجورةْ
تتساقط الآن أزهارُ الجاردينيا ؟

ماغنوليا

آه .. في الظلِّ
تحت نافذتي
كانت تتفتح أزهارُ الماغنوليا !

حين أراكِ

أتساءل حين أراكِ
ألا تزهر أشجارُ البرقوقِ
في مطرِ الربيعْ ؟

من شرفتي

عصافيرٌ بيضاءْ
تحاول إيقاظ العتمةْ
بين أغصانِ الصفصافْ

أسماء

من يسألُ
الوردةَ
عن أسمائها ؟

كلمات

أحياناً
تتركني مع كلماتٍ
ينحتها الصمتْ

كستناء

نحيبٌ طويلْ
واحدةً بعد أخرى تتساقطُ
أوراقُ الكستناءْ

سيتار

في الليالي الموحشةْ
أسمعُ السيتارْ
أفكر بالمشنوقين على الأشجارْ

حدائق العاشق

1996

أنا ناجٍ من قبيلةٍ مفقودة

أنا ناجٍ من قبيلةٍ مفقودة ، الناجي الوحيدُ ربما ، لأن لغتي لم يعد يفهمها أحد ، وحقيبتي ممتلئةٌ بأشياء لم يعد يتذكّرها أحد ، ولأنني ، وهو الأكثرُ أهميةً ، أنادمُ أناساً وهميين من عصورٍ غابرة ، أدعوهم إلى مائدتي ، أو يدعونني إلى منازلهم ، وما أن ترتفع شمسُ النهارِ حتى تختفي الموائدُ والمنازلُ ، ولا تظهر علامةٌ تقودني إليهم أو تقودهم إليّ .
أنتظرُ الليلَ لأتّخذ طريقي إلى هذا البارِ الذي تسكنه رائحةُ البحر وتغني فيه امرأة ٌ آسيوية لصوتها رنينٌ ولعينيها نشوةُ غابةٍ تحت ضياءِ القمرِ، وتحتضن فيه غجرية ٌ كأسها كأنما تحتضن أيامها الأخيرةَ على هذه الأرض إلى أن ينسربَ شيءٌ من روحها ، فتندفع بعنفٍ وتنشب أظافرها في صدرِ صاحب البار العجوز .
أنتظرُ الليلَ لأرى عابرين يلصقون وجوههم بزجاجِ نوافذه ، ويتركون وسماً من ضبابٍ قبل أن يغيبوا ، لأرى رجالا ونساء قلقين يتوافدون في منتصفِ الليلِ كأن سفينةَ أشباحٍ تركتهم على الشاطئ فجأة ، فانسربوا في أي مكانٍ يلمحون فيه نافذةً مضاءة ، أو يسمعون فيه نغمةَ ماندولين متوحد ، أو يرتفع فيه غناءٌ عن الأيام الخالية .

أصيب جسدُ الفنزويلية باليأس

أصيب جسدُ الفنزويلية باليأسِ ، فاختارتْ هذه الحانةَ المنزوية في شارعِ الصفصافِ لاصطيادِ العابرين ، وتعليقِ أرواحهم في زجاجاتٍ أرجوانيةٍ لامعةٍ تصطفُّ وراءها على الجدارِ ، فكانوا يأتون بأرواحٍ كاملةٍ تصرخُ في أرجائها النوارسُ البحرية ، ثم يغادرون أشباحاً بلا ذاكرةٍ تحمل القواقعَ البحرية ، ومشهدَ النافذة والسفينةِ التي ربّانها الريحُ والرذاذ .
حين عدتُ ونظرتُ إلى روحي المعلقةِ هناك على جدارِ باب الله الخالي ، كان الضحى في آخرهِ ، والنسماتُ العابرةُ تعبث بستارةٍ من خيوط ِ خرزِ مدلاةٍ على البابِ ، فتصدر وسوسةً وهي تحتك ببعضها .
الروحُ لا تُرى ، إلاّ أن الخدوشَ على سطحِ الزجاجةِ الأرجوانية ترسم تعرجاتها ، وتمنحها شكلها اللامرئي ، وتمسك بها في هذا الحيّزِ الضئيلِ ، حيزٍ يذكّرُ بكل شيء : بالبحارِ العميقةِ والأوديةِ النائيةِ ، والسماواتِ والكنائسِ المهجورة والمساجدِ المندثرة والمدنِ ، المدنِ التي يهبط الثلجُ خفيفاً على تماثيلها الحجرية ، وساحاتها الخالية وطرقاتها المتشققة ، هناك حيث تنمو في الصدوعِ الأعشابُ وتتكاثر أزهارُ الداندليون الصفراءُ اللامعةُ تحت شمسِ الظهيرة.

إستيقظت امرأةٌ رقدت في خزانةِ الجوز

إستيقظت امرأة ٌ رقدت ْ في خزانةِ الجوز ِ عدداً من السنين ، فوجدت ْ إلى جانبها أشياءَها الأثيرة َ: نظاراتها الطبّية ، دفترَ المذكراتِ ، أقلامَها ، فساتينها ، وأحذيتها الساتانية . لم يكن يُسمع صوتٌ سوى صوتِ تنفسها الهادئ ، وفي الخارج وشيشٌ خافتٌ لندفِ ثلجٍ لا زالت تتساقط .. وتتساقط .

سطوحُ البيوت بيضاءَ ، ورؤوس أشجارِ الصنوبر تبيضُّ في الظلامِ ، الأرصفةُ وأعشابُ الحدائقِ ، بياضٌ في كل مكان ، إلا أن جوّ الخزانةِ كان دافئاً مثل أغنيةٍ عالقةٍ منذ الأمسِ في الهواءِ نغماتها مألوفة إلى درجةٍ ضجّ معها قلبُ المرأةِ بالدماءِ الساخنة.

حين فتحت ْ بابَ الخزانةِ ، لفحتها الظلمةُ، وتدفقت فجأة فأشعرتها بالقشعريرةِ ، بالتوحدِ ، وامتلأ هواءُ الخزانةِ بالظلمةِ، وأدركت المرأةُ حين خرجت ْ أنها تقف عاريةً تحت ندفِ الثلج المتساقط .

لا شئَ حولها سوى البياضِ إلى أبعد مدى . وحين رفعت ْ عينيها إلى السماءِ التصقت بشفتيها ندفةُ ثلج وذابت ، وأخرى وذابت . لم ترَ غير فضاءٍ بلا نجومٍ ترفّ فيه ندفُ الثلج مثل طيورٍ صغيرة بيضاء .

أفكّرُ بالمرأةِ المجهولة

أفكّرُ بالمرأةِ المجهولةِ متخيلاً أنها سألتْ عنّي في الماضي والحاضرِ، وتابعتْ طريقها مع السطورِ وهي تتلاحقُ باتجاهِ غابةٍ أو قوسِ انتصارٍ قديمٍ، أو نافورةٍ في ساحةٍ من ساحاتِ إحدى العواصم .

نهارٌ محمومٌ في دلفي

نهارٌ محموم في معبد "دلفي" ، لم تبقَ سوى الريح بين أشجارِ الزيتونِ والبندقِ ، ذكرى عصافيرَ تنتشر في غابةِ توتٍ ، خيالاتُ نيرانِ الأضحياتِ ، العباءاتُ الأرجوانية ، النبيذُ ، أنهارُ الحضارة اليونانية في أعيادٍ لا تُحصى.

الرمادُ يتساقط في ظهيرةٍ معتمة

الرمادُ يتساقطُ في ظهيرةٍ معتمةٍ مثل هذه على امتدادِ شاطئٍ ناءٍ كان ذهبياً ذات يوم ، ثم برونزياً ، وفجأة تحوّل إلى حديدٍ وصدأ .
أكوامُ حجارةٍ تعلوها الأعشابُ وتغوصُ في وحلِ الشاطئ حتى حدودِ المياهِ ، فتتلألأ صورتها . مدينة ٌ وهمية ٌ سكانها الأسماكُ والقواقعُ وزرقةُ الليلكِ الطافي وهياكلُ السفن المنخورة .

و فجأة تلوح سفينةُ أشباحٍ من أعلى فنارٍ مطفأ منذ مئات السنين، وأنا أركضُ من مكانٍ إلى مكانٍ ولا أصلُ ، أتعثرُ ولا أصلُ ، عتمةٌ في كلّ مكان .

الطيورُ تغيّر أشكالها

الطيورُ تغيّر أشكالها، تنحدرُ إلى جوانبِ البحيراتِ ، تختفي بين الأشجارِ والصخورِ، تخرجُ من الأجماتِ نساءٌ ذهبياتٌ يهبطن إلى الماءِ واحدةً بعد أخرى .

أكتشفهُ في شوارعِ نيقوسيا

أكتشفهُ في شوارعِ نيقوسيا ذات صيفٍ ، وألخّصهُ بهذا المشهدِ المتقاطعِ :
يتعمدون بالماءِ ، ماءِ "الأردن" أو نبعِ "صافيتا" أو أي نبعٍ كان ، بحضورِ الأقاربِ والكاهنِ والأصدقاءِ وممثلِ الدولةِ والإشبين . في هذا الوقت بالذاتِ أراه يتناول صحيفةَ "الحياة" ، يتصفحها نصفَ مبالٍ ، يعيدها إلى مكانها في واجهةِ الكشك في ساحةِ "الوثيريا" ، ينطلق بسيارته القديمة عائداً إلى البيت ليظلّ مع طفلهِ الصغير حتى منتصف الليل . يصرُّ "شارل" على أن يتعمد بالماءِ وحيداً .

الحديقةُ هي كلّ ما يذكر

الحديقة ُ هي كل ّ ما يذكرُ ، المقعد ُ الطويل ، المقاعد ُ المتناثرة ُ الخالية ُ أمام أحواض ِ الشجيرات ِ الصغيرة .
في ذلك الصيف ِ تخيّل َ طائرَه الملوّن َ موجودا ً. لا بدّ أنه في مكان ٍ ما من هذه الحديقة أو هذا البيت .
كم هي قريبة ٌ من قلبه ِ هذه المرأة . ودّ لو يركع قريبا ً من قدميها وهي عند أطراف ِ الفجر ِ ويرجوها أن تأخذه ليبحثا عن طائره ِ الملوّن . طائره ِ الحجريِّ البعيد .

السماءُ عالية

السماءُ عاليةٌ، فضاءٌ شاسعٌ من البرتقالِ والتركوازِ، وبيننا هذا الزمنُ.. مياهٌ شفافة. بعيداً في القاعِ تحلّقُ الطيورُ، تتجرّدُ النسوةُ وتبترد الظلالُ، تنفتح النوافذُ في الجدرانِ، تتغير أشكالُ البيوتِ والناسِ، ترتفع المباني الإسمنتية بجوار البيوتِ الطينية، تتصاعد نداءاتُ الباعةِ، وتختفي البساتينُ، ويتحوّل الليلُ شيئا فشيئا إلى كهرمان.

تقول صاحبةُ الحانةِ: " لا شيءَ يبدأ أو ينتهي، مشهدٌ صامتٌ يرتفع فيه غبارُ هذه الصحراء ما أرى، أو ثلجٌ يدوّم في أقاصي الشمالِ البعيد. ليس لنا إلا أصواتَ الكلماتِ وألوانَ الأشجار، والأغنيةَ التي تتحوّل إلى حجرٍ، وهذا الحفيفَ الذي تصدره خطواتنا في ممراتِ الغابة. ليس لكَ إلا أن تتحوّل إلى ما تشتهي، تستيقظُ صباحاً فإذا أنت فراشةٌ، وتنعس ظهراً فإذا أنت سدرةٌ تزحمها العصافيرُ، ومع الليلِ تكون قيثارةً مفلولةً صمتُها أخضرُ في فراشِ امرأةٍ وحيدة ."

اللوحُ أو ما تبقّى منه

اللوحُ أو ما تبقى منه لم يكنْ إلاّ شظايا ، ربما كان هكذا في الأصلِ ... من يدري؟ لا أحدَ يهتدي إلى صورتهِ الأصليةِ إلا تخيّلاً ، فيمنحه الخيالُ آلافَ الصورِ المحتملة ، ويظل ترتيبُ الشظايا بحيث تكون نصاً ذا معنى أو نصفَ معنى محالا .

هنا بخورُ مرٍّ يتصاعدُ ، قواريرُ طيبٍ وعطورٍ ، شفاهٌ ، كرمٌ أو بقايا كرمٍ ، عينان ، فخذا امرأةٍ عارية ، هنا شجرةُ أرزٍ ، قوائمُ سريرٍ خشبيٍّ ، وهناك يواقيتٌ زرقاءُ تحلّي يداً طويلة الأصابع ونهدين قاتمين .

النقوشُ نفسها ليست أصواتَ لغةٍ يكون فيها الماضي والحاضر والمستقبل ، ليست ألفاظاً تروي أخباراً ، إنها أوعيةٌ من طينٍ أحمر أو فخارٍ أو مرمرٍ معرّقٍ نحدق في فراغها ، هذا الفراغ وحده الذي تحيط به وتمسكه ، الفراغُ الذي صُنعت من أجلهِ . وليست هذه هي الصعوبة الوحيدة ، فالنقوش رغم أنها محفورة بالأزاميلِ لا تماثل النقوشَ المسمارية ، ورغم أنها تعرض صوراً إلا إنها ليست هيروغليفية ، إنها أحداثٌ ممتعة بذاتها لا تكشف عن غير ذاتها ، لا تمنح فكرةً بل إحساساً قوياً بالوجود . إنها فنٌ صافٍ تعود فيه القصيدةُ إلى بياضها والوردةُ إلى عرائها والمرأةُ إلى موجتها التي كانت عليها .

النساءُ في خزاناتِ الجوز

النساءُ في خزاناتِ الجوزِ يرتجفن حناناً. الكتبُ والأوراقُ والنظاراتُ وقطعُ الدانتيل المرتّبة بعناية. المناضدُ والمقاعدُ وزجاجُ النوافذِ الواسعة، الحدائق والمقاهي المظللةُ تحت الشمس النحيلةِ، شجرُ البابونج العالي بأوراقهِ الصفراءَ، حباتُ الكستناء الساقطةُ منذ مطرِ الأمس.
طفلتان تجمعان أزهارَ الداندليون الغزيرةَ بين الأعشابِ، تضفر كل واحدةٍ منهما إكليلا، تتبادلان الأكاليلَ، تركضان متضاحكتين، تختفيان بين الأشجار.
ينحدر صوتُ البيانو، يتخلل أشجارَ الصنوبر والكستناءِ، يمرّ مع التماعاتِ الشمسِ المتوالية في ممراتِ الغابةِ، يتغلغلُ، يندامُ مع اتساع نهرٍ وحيدٍ تحاذيه أجمةُ قصبٍ حتى مصبّهِ الأخيرِ في الظلام.

ما أن تتطايرُ شفافيةُ الفجر

ما أن تتطايرُ شفافيةُ الفجرِ ويبدأ لغطُ الناسِ في أوائلِ النهارِ حتى أراكِ تتقدمين مثقلةً إلى الحافةِ ، حافةِ الضوء : ذلك اللاشيءَ الذي يتلبّس كلّ شيءٍ فجأةً ، ويأخذ بالإمتدادِ من حافةِ الأريكةِ إلى أقصى الصالةِ ، إلى البوابةِ ، ويتوقف بدوره دون الحديقة ، دون البوكنفيليا المثقلةِ، وشجيرةِ المندلينا ، ودون كلّ ما كان .

النهارُ في أوّله

النهارُ في أوّلهِ يشيع الحنانَ في الجوّ ِ ، أو يشيع شيئاً حاضراً وماثلا ، معنى . يستيقظ "بافلوف" ، وهو مستيقظٌ الآن بالتأكيد في شقته الصغيرة . ينهضُ عن سريرهِ ليعد قهوته الصباحية ، وليتأكد أن خزانة الجوز لا تزال مغلقةً على أشيائها العزيزة . تلك الشيوعية العنيدة التي تركتْ له المجلات النسائية ، الكتب ، دفتر اليوميات ، نظاراتها الطبية ، وهذه العاصفة الغامضة التي حطّمتْ التماثيلَ وقوّضت الصروحَ الرخامية ، وكسرتْ مصابيح الحدائق، ونثرتْ كافتريات الساندويشات والقهوة السريعة في كل مكان . إنهيار عصيٌّ على الفهمِ لصرحٍ بدا أنه ينتمي للأزل . لا يبدو "بافلوف" مترنحاً تحت هذا الثقل ، بل خفيفاً إلى درجة لا تصدق حتى هذه اللحظة التي بدأ يتخطى فيها أعوامه الثمانين صامتاً .
وبدا الآن وراءَ زجاجِ النافذةِ مثل شبحٍ طويلٍ يراقب النهارَ المنتشرَ بين أوراقِ أشجارِ الحديقةِ المواجهة ، وشعرِ النساءِ العائداتِ من السوقِ أو المكاتب الكابية ِ ، وعلى وجوهِ التلاميذ الصغارِ العائدين من المدرسةِ وحقائبهم على ظهورهم وهم يتقافزون بين الأشجارِ المشمسة .

النهارُ في أوّلهِ حيث يمرّ النسيمُ على البوكنفيليا المثقلةِ ، وبين أوراقِ المندلينا ، وعلى المقاعدِ البيضاء المتناثرة . لا زال النهارُ في أوّلهِ يحمل أشياءَه إلى الحديقةِ الخاليةِ . يتوقفُ عند السورِ باحثاً عن شيء يلمسهُ ، شيء يتعلق بالإنسان ، كوب ِ شاي ، أو قدحٍ ، أو طائرٍ ملوّنٍ من الفخارِ ما زال ملقيا كما كان بالأمسِ بين الأعشاب .

النهارُ في أوّلهِ يشيع الحنانَ والمعنى ، فيبدو اصطخابُ الموج على شاطئ "هاواي" نداءً للجسد .
"ليندا" تستلقي في حالتها الذهبيةِ تحت شمس خط الاستواء ، صحوٌ ومطرٌ، أو غيم ٌ ونهارٌ في وقتٍ واحد . تتساوى الأشياءُ ، وتبدو العواصمُ في الذاكرة قريبةً من هذه الصخرة أو هذه الموجة ، وهذه السماء المفتوحة على القارات . صورُ العشاق يأخذها الموجُ بعيداً . "ليندا" تتذكرُ، تهتدي بالأمواج .

إنتشروا على المنحدرات

انتشروا على المنحدراتِ المطلةِ على الشواطئ مثل بحارةٍ أغرقوا سفينتهم ، وبدأوا بقطعِ الأشجارِ وإقامةِ المخيماتِ على شاطئٍ منعزلٍ ربما ينحدرُ إليه أطفالٌ في مقبلِ الأيامِ، أطفالٌ متوحشون قادمون من مدنٍ خربةٍ، من ثلاجاتٍ وناطحاتِ سحابٍ ومنتجعاتٍ ويخوتٍ جانحةٍ تحوّلتْ إلى هياكلَ تعبث في مياهها أسماكٌ صغيرةٌ مبتهجةٌ ، وتطفو طحالبُ وأشناتٌ وصناديقُ عطورٍ ومجوهراتٍ خاليةٍ، وحمولةُ سفائنَ أبحرت بلا مسافرين ولم ترجع أبداً .
بين الفينةِ والفينةِ كان يرتفع غناءٌ في هذه الخيمةِ أو تلك ، أو تصدر صرخاتٌ مرحةٌ بين أشجارِ الصنوبرِ، أو أصواتُ أقدام حافية تتراكضُ ضاحكةً تحت الظلالِ، أو تتناثرُ نغماتُ ماندولين متوحد .

تساقط الثلجُ طوال الليل

تساقط الثلجُ طوال الليلِ في أمكنةٍ عديدة . ربما يتساقطُ الآن على علّيةِ بيتٍ في شارع "كاستريشي" ، حيث ترقد امرأةٌ على ظهرها ويميل عليها رجلٌ يغطيها بعباءته الأرجوانية ، يغطي شفتيها بشفتيهِ ، يحتضنها ، فيتحجّران معاً لمئاتٍ السنين القادمة. قبلة ٌ نهمة ٌ قاطعت الغبارَ الكونيَّ الهائلَ الذي هبطَ على مدينة "بومبي" الرومانية قبل ألفي عام .
ربما يتساقطُ الآن على حديقةِ "يوسانو آكيكو" ذات الشعر الفوضوي ، فتتمتم وهي تأخذ نهديها بيديها "ما جدوى الكلامَ عن الخلودِ الذي لا نراه ؟ الربيعُ قصيرٌ... قصيرٌ وعابر" .
ربما يتساقطُ الآن على شظايا ألواحٍ حجريّةٍ في معبد "سافاثا" الراقدِ في العتمةِ الأرضية ، حيث لا تزال امرأة ٌ إلهية مرتسمةٌ على حافةِ شظيةٍ تحتضن عاشقاً متحجّراً وحولهما أشجارُ الآس والياسمين .
ربما يتساقطُ الآن على بلاطِ الشارعِ المعتمِ أمام شقةِ "يانتشيف" الستيني بشعرهِ الأبيضِ المسترسل وقامتهِ الطويلة ، وراء زجاج نوافذه الورديّ ، على أشجارِ الكستناءِ المبتلةِ، على مظلاتِ العابرين ومداخلِ البناياتِ المعتمة وحدائقها التي بدأت تتحوّل إلى بياضٍ صامت .
ربما يتساقط الآن على خزاناتِ الجوز الثمينة ، فترتجف أعضاءُ النساءِ لذةً ورغبةً، ويواصلن أحلامهنّ البيتية : بتلاتُ أزهارٍ حمراءَ تتساقط في ليلٍ طويل

حين تقفُ وراء زجاج ِ الشرفةِ العالية

حين تقفُ وراءَ زجاجِ الشرفةِ العاليةِ ، وتتطلعُ إلى الأشجارِ وسطوحِ البيوت ِ المنخفضةِ ، والمباني العاليةِ ، لا ترى إلا الأبيضَ بارزاً ومضيئاً في العتمة . البياضُ ، البياضُ المطلقُ والوحيد . دعوةٌ للسهرِ ، أو رغبةٌ لمرافقةِ هذا البياضَ في رحلتهِ حتى منعطفِ الصباح .

هذا النثارُ الأبيضُ المتساقطُ الخفيفُ يبدو نائياً . الغرفةُ دافئةٌ بفضلِ نظامِ التدفئة المركزية ، بقيةٌ من حسناتِ النظامِ القديم ، نظامِ التماثيلِ المنكفئةِ في الحدائقِ ، والمجمعاتِ السكنية الشبيهة بخلايا نحلٍ عملاقة ، نظامِ خزاناتِ خشب الجوز الكامدة حيث يحتفظ البافلوفيون بنسائهم ، بكل ما تبقى : الأقلامُ والأوراقُ وفساتينُ النزهات والقبعاتُ الشاحبةُ، بحرص ودقةٍ متناهيين يصلان حدّ تقديسِ الغبارِ ، نظامِ الموظفات العجائز اللواتي لا زلن يحتفظن بصرامةِ النظرةِ المتشككة والحذرة ، والشاباتِ الضاحكاتِ مثل نهارٍ يحلم بصديقٍ وزجاجةِ "راكية" وغرفةٍ دافئةٍ تطلّ على شوارع َمقفرة .

تقاطع نصّي أصواتُ بيانو

تقاطع نصّي أصواتُ بيانو، ظلالٌ تتقاطع تحت أزهارِ البوكنفيليا ، سفينةُ أشباح ً.

تقول صاحبة الحانة :

ـ سافاثا هذه ولدتْ في خيالكَ أيها الآرامي التائه ، ستمائة عامٍ أو أكثر ، أنتَ لا تعرف حتى أين تكون .

ـ ربما هي أمامي من دون أن أدري .. ربما هي في أقصى ماضيكِ ، أو ماضي الكونِ ، نوعاً من "بومبي" رومانية وصل صراخُ شهواتها إلى السماءِ ، فقرّرتْ أن تطمسها بأكوامٍ هائلة من الرمال .

وتحتجّ الكاهنةُ التي لم تعد ترَ شيئاً في غمراتِ الوجوهِ والأمكنةِ ، ويرتجّ عليها . مطرٌ وساحاتٌ وأنداءٌ وحفيفُ أجسادٍ، إصطفاقُ مياهٍ على جوانب مرسى ، وزوارقُ خالية ، أمسياتٌ، غاباتٌ، وأخيراً هذه المرأةُ تحت مسقطِ ضوءٍ تقلب بين يديها ساهمةً طائراً حجريّاً منذ آلاف الأعوام .

ـ يتعدّد هذا النصُّ ، يتشظى . ليلٌ كستنائي ، ليلٌ فاحم ، ليلٌ برتقاليّ ، ليلٌ ساطع . لا أعرف ما أراه حقاً . قولي ما الذي ترين؟

ـأرى متوحداً يقترب من المتاهةِ ، من الحجرِ الذي سيكون .

تغوص أقدامُهما في الثلج

تغوص أقدامُهما في الثلجِ ، ويغوص هو في إحساسهِ بمتعةِ البردِ العميق ، وخفة ِ ندفِ الثلجِ المتساقطِ ، ومشهدِ التماثيل الجرانيتية السوداء اللامعة . بعضها لا يزال على قواعدهِ ، وبعضها قلبوه ، فغاص نصفهُ الجانبيُّ في الثلجِ الأبيضِ ، أو غاص وجهُه وصدرُه ، وبدأ الثلجُ يطمر ظهرَه اللامع .
يلتفتُ إلى ممراتِ الحديقةِ الخالية .شخوصٌ تتراءى من بعيدٍ ، إمرأةٌ تتباطأ في سيرها مع طفلين بحجم دميتين تتحركان . أنوفٌ حمراء ومعاطفٌ تصل حتى الكعبين .
لا أحدَ يرغب بالحدائق المعتمة الآن ، الحدائق الباردة تحت سماءٍ من ضباب . المسافةُ إلى كل شيء معتمةٌ وسوداءُ لولا هذا البياض الهادئ في تساقطهِ .

ذات مساءٍ ستهمس هذه الأزهار

ذات َمساء ٍستهمسُ هذه الأزهارُ في الوحشة ِ، تنتبه ُ إلى حدود ِ الفجر ِ، إلى الإمتلاء ِ الذي كان ، قلب ِ الأشياء ِ والحديث ِ والشفاه ِ ونعاس ِ أوائل النهار . ننعطف مئات َ المرّات ِ ضائعين في أراض ٍ ينتشرُ فيها النوّارُ ، وتتساقط ُ نغمات ُ بيانو في عتمة خفيفة . هناك في السماء ِ حيث تنحدر الغيوم ُ في الظلال . حيث تركت ُ طائري الحجريّ الصغيرَ الملوّن .

جيفارا يحوّل العالمَ إلى غابة

"جيفارا" يحوّل العالمَ إلى غابةٍ ممكنة . متاهةٍ يختبئ فيها البرّيُ والبدائيُّ إلى أن تتهرأ المدينةُ ، فيخرج من الغابةِ بأسمالهِ وجيشهِ القليل الملتحي ليسحق بقايا الجيشِ المتحلل . ويتذكر "جورج" بشغفٍ كيف كانت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن ترافق أحدَ قادة المقاومة السرية الفرنسية في قبوٍ تحت الأرض.. "حين تلطخت بالنبيذ وكادت تقع على الأرض أمسكها بحنانٍ مثلما يمسك الإنسان بشظيةٍ من روحه " .

يروي الحادثةَ بشهيةٍ عجيبة ، ويفكّرُ ربما مبتهجاً بذلك الموتِ الذي سيصادفه فوق قمةٍ جبلية يغطيها بياضُ الثلج في منتصفِ ليلٍ ما ، إلى أن يغيبَ تحت النثارِ الأبيض .

زجاجةُ النبيذ المائلةُ في سلّةِ القش

زجاجةُ النبيذِ المائلةُ في سلّةِ القشّ ملقاةٌ على رملِ الشاطئ بيننا ، و"ليندا" تغني هامسةً ووجهها إلى البحرِ قصيدة "هياواثا" ، آخرِ الهنودِ ، وربما آخر البراري والغاباتِ ، وربما آخرِ الأيام الستة ، قبل رحيلها بساعات .
أهتدي إليها بالأمواجِ وذهبِ الشمسِ الغاربة والإيقاعِ الهامس ، أهتدي إليها بالخواتمِ الخزفيّةِ الزرقاءَ والحمراءَ التي أثقلتُ بها أصابعها ، وعقودِ الخرزِ الملوّنِ التي أثقلتُ بها جيدها أمام الغجريةِ السمراء المتربعة على الأرضِ مع عقودها في ساحة "بياتسا نافونا" .
ـ هكذا كانوا يؤلّهون المعبوداتِ ، بالأحجارِ الملوّنةِ ولهبِ المشاعلِ والعري في أعماقِ المعابد المقدسة
تبتهج وتضحك وتضحك
ــ ستظل طفلا يا صغيري... تعال نقرأ طالعنا
ـ قرأته قبل آلاف السنوات ... ألا تعرفين أنني كنتُ كاهناً في "سافاثا" ، ورأيتُ عرباتِ الغزاةِ تحملكِ بعيداً حين كانت أحجارُ المعبد تنتحب واللهبُ يحيط بكل شيء ؟
ـ أنا..
ـ لا تقولي شيئا ، كنتُ كاهنكِ الوحيدَ، وها أنا أعيدكِ إلى متاهتي ، ها أنتِ تنبعثين بين الخرائبِ، حيث تنبعث الأميراتُ والأعشابُ وتتنهد الريح
ـ خياليٌّ .. خياليٌّ دائما.. دع هذه الغجرية تقرأ طالعنا
ـ على شواطئ مهجورة تتساقط أزهارٌ كثيرة ، عاشقٌ متوحدٌ في سفينةِ أشباح ، عرافاتٌ يمحين اسمه عن صخرةٍ، فتضيع روحُه ولا تهتدي ، أنتِ ، أنتِ أميرةٌ منفيّة في معبد "دودونا" أو طرقات "بومبي" أو "هركلينوم" المطمورة على ساحل البحر.

روما القديمة ، أرضيةُ الحماماتِ المتآكلةِ ، أشجارُ الزيتون والبندقِ ، جدرانُ الغرفِ الموحشةِ ، قوسُ النصرِ العالقُ على بضعةِ أحجارٍ على الجانبين ، طرقاتٌ وهمية في متاهةِ الركامِ المتناثرِ ، أعمدةٌ خضّرتها الطحالبُ ، زوايا تتردد فيها الريحُ ، الريحُ نفسها ربما ، أو الأنفاس نفسها... من يدري ؟

في الشعرِ وحده تعودُ الأرواح

في الشعرِ وحده تعودُ الأرواحُ إلى حقولها المنسية ، يولد حجرُ الروحِ مائياً وشفافاً ، تولد مرساةُ الروح . هكذا بدأ كل شيء في هذه الغابة الحجرية ، من رافعةِ نهدين حمراءَ بلونِ العقيقِ وظهرٍ عارٍ وشعرٍ ذهبيّ وفخذين موجتين ،

من ظلال ٍ خضراء َ متناثرة وشمس ٍ غاربة ، ونسمات ٍ تتردد بين الفينة والأخرى ، من أميرة ٍ عارية ٍ على فراش ٍ مرتجل ٍ وضعناه على عجل ٍ في الصالةِ أوقدنا إلى جانبه شمعة ً ضخمة ً لا تذكر بشموع القديسين ، بل بمشاعل َ خافقة ٍ على امتداد ِ شارع اللذائذ ِ في "بومبي" ، أو في زوايا حانة ٍ اسكندرانية على البحر ِ ، أو في طريق ٍ ملكيّ في "سافانا" كلما أحاط بها الليل .

سماء ٌ من التركواز

سماء ٌ من التركواز ِ، أشجارُ كينا تمتد ُّ عميقا ً في مياه ِ البحيرة ، وعول ٌ تتشمّم الهواء َ ، تنحني على الماء ِ فيصدر لمعات ٍ متوهجة، وهج ٌ في كل مكان ٍ ، ظهيرة ٌ

ملتمعة ٌ ، وأنا أركضُ من مكانٍ إلى مكانٍ ولا أصلُ ، أتعثر ولا أصلُ ، وهجٌ في كل مكان ، فتقهقهُ وهي تنحني وتأخذ بيدي ، أنهضُ متباطئاً ، أتلفت حولي حيث كانت الوعولُ والمياهُ والأشجار.

ــ لغتكَ الإنجليزية أزهرتْ فجأةً، لغةٌ جميلة ، شيءٌ غريبٌ ، طعمٌ غريب تولجه في اللغة

ــ ربما بفضلكِ

ــ هل تسمح إن أصلحتُ أخطاءكَ؟

أخطائي كثيرةٌ ، لم تكن اللغةُ أحدها ، ولا النفورُ من هذه الخمرة القوية ، ولا هذه البرّيةُ الشاسعةُ التي تسمينها وهما، أخطائي ربما هي أنني غادرتُ الغابةَ متوجساً منذ زمنٍ طويل ولم أعدْ أعرف كيف أعود .

سرُّ شجيراتِ الفلّ القصيرة

سرُّ شجيراتِ الفلِّ القصيرةِ يجتذبهُ. فهذه الشجيراتُ تظلُّ براعمها مغلقةً، خضراءَ ، وفجأةً حين يصحو صباحاً يجدها تنفجرُ بالبياضِ ، والأريجُ المميزُ يملأ الهواء .

في الفجر ِ أحيانا ً يسير جيئة ً وذهابا ً بمحاذاة ِ شجيرات ِ الفلّ تحت النافذتين منتظرا ً لحظة َ هذا الإنفجار ِ، إلى أن يصيبه النعاس ُ ، ولا تخرج البراعم ُ الخضراء ُ من صمتها ، فيأوي إلى فراشه ِ متخيّلا أن الشجيرات ِ لا تفجّر بياضَها إلاّ في الوحدةِ ، تنفتحُ بهدوء ٍ مستمتعة ً بوحدتها اللامعة ِ في وحشة ِ الحديقة .

طليطلة ُ تنحدر ُ ليلا ً

"طليطلة ُ" تنحدرُ ليلا ً إلى الوادي العميق ِ ، تتحوّل البيوتُ والحانات ُ والأزقة ُ والساحات ُ إلى عناقيد َ من النجوم ِ غارقة ٍ في سواد ٍ مبهم ٍ، وما أن يصل المسافرُ

إلى القمةِ حتى يتلامح جسرُها الحجريُّ القديم ، بياضٌ باهتٌ فوق هاويةٍ غارقةٍ في العمقِ النائي ، حجارةٌ بيضاءُ غضّنها الغبارُ وسقوطُ أمطارٍ في أزمنةٍ لا يذكرها أحد . الجسرُ نفسه تحوّل إلى جسورٍ مصغرةٍ مصفوفةٍ في محلّ العادياتِ ، لها شكلَ أوعيةٍ لرمادٍ السجائرِ تدافعتْ على قوائمها من الجهاتِ الأربع شخوصٌ لملوكٍ ومحاربينَ وملكاتٍ وأطفالٍ وفلاحين ؛ تماثلٌ أصفر يميلُ إلى لونِ التراب.

شارع خريستو بوتيف

شارعُ "خريستو بوتيف". صفوفُ أشجارِ حورٍ سامقةٍ وعاريةٍ على امتدادِ الجانبين . البناياتُ ثقيلةٌ. مداخلها مسودّةٌ كأنما من آثارِ حريقٍ قديم . لا أثرَ إلا لأشباحِ "كافكا" المتردّدينَ على محاكمَ تنظرُ في اتهاماتٍ لا يعرفون ما هي ، والمنتظرينَ لدى بوابةِ القصرِ منذ عصورٍ لا يعرفون عددها .
من المؤكد أن "كافكا" كان واقعياً حتى الجنونِ ، حتى تلك اللحظةِ التي يعرف فيها الكاتبُ كل شيء : البدايةَ والنهايةَ ، فيقف مذهولاً أمام الصمتِ الكونيِّ الأخيرِ، أمام ذكرى الإنسان، من دون أن يتعثر بالسلاحفِ وعمالِ السكك الحديدية ورجالِ المخابراتِ ومديري مراكز الأبحاثِ المطمئنين وقادةِ الأحزابِ، ونباتِ الظل الذي يُنهي قصائدَه دائماً بأنخابِ النصر.
هذه هي المرّةُ الأولى التي يكتشفُ فيها أن المدنَ يمكن أن تُبنى، أن تتسع ساحاتُها لآلافِ المتظاهرين والراياتِ ، أن تتردد فيها أصداءُ الخطابات الحماسية ، ثم لا يخلف ذلك غير البردِ والسكونِ ، والقليلِ من المحتفلين بالذكرى ، والريح التي لاتزال تعصفُ أو تهدأ منذ أن استمعَ إليها إنسانُ الكهفِ ، فإنسانُ القريةِ ، فإنسانُ المدينةِ ، وأخيراً إنسانُ الإمبراطورياتِ والقراصنة . كلُّ شيء يبيدُ إلا الريحُ ، الريحُ نفسها التي عصفتْ بمدنِ الماضي ، ستعصفُ أيضا بمدنِ الحاضر، وتتخطاها في رحيلها اللانهائي .

على رصيفِ الميناءِ يتجوّل غرباء

على رصيفِ الميناءِ يتجوّل غرباءٌ فقدوا سفائنَهم ، ومنحهم القلقُ والشرودُ مظهرَ نوارسٍ أثقلها الليلُ ، فلم تعد تستطيع التحليقَ أو الصياحَ في حضرةِ البحرِ القاتم

ِ ، البحرِ الذي ينام الآن بلا فجرٍ قريب . وفي الأزقةِ الداخليةِ ، حيث يتكاثف شجرُ الكافورِ ويملأ الحدائقَ البيتيةَ الصغيرةَ، ويُسمع خلفَ العتمةِ رنينُ الأقداحِ وموسيقى عازفين لامرئيينَ ، تتحدث أشباحٌ عن مدائنَ بحرية لا يراها إلا الغرقى والقواقعُ والأسماكُ، وعن نساءٍ هيبياتٍ جئن من بلادٍ مجهولةٍ ، تطفو أجسادُهن العاريةُ فوق الأمواجِ والزبد المضاءِ تحت قمرٍ لامعٍ في الهزيعِ الأخيرِ من الليل . إذا ابتعدتَ قليلا ، وخلفتَ وراءك الميناءَ والبيوتَ الحجريةَ باتجاه التلالِ الصخريةِ وغاباتِ الزيتونِ والتينِ، وأوغلتَ في الخضرةِ وحدها ، والهواءِ وحده ، ستكتشفَ نيراناً متفرقة أمام الكهوفِ ، وهديرَ غناءٍ وحشيّ يتصاعدُ من كهفٍ واسعٍ تخالطه أصواتُ دمدمةٍ وعواءٍ وصراخُ أوعالٍ لا تلبث أن تهدأ .. شيئا فشيئاً ، ويتحول الكونُ إلى تنفسٍ هادئٍ ونشيجٍ يُسمع بين آونةٍ وأخرى .

على حافةِ أمتارٍ من العشب

على حافةِ أمتارٍ من العشبِ ثلاثةُ أنواعٍ من الأشجار : التينُ والرمّانُ والليمونُ ، ترافقه حتى بوابةِ السورِ صباحاً حين تكون الشمسُ في وجههِ ، وتعود معه مساءً مائلة ً في الريحِ حين يعود . تظهرُ بضعةُ أزهارٍ بيضاءَ، وتتساقطُ بلا سببٍ، فلا تظلّ لشجرةِ الليمون إلا أوراقها الخضراء . يفكّرُ بعمرِ إنسانٍ ما

تتساقط أزهارُه قبل أن يعرف أية ثمارٍ غامضةٍ حلمتْ بها . الريحُ تعصف فجأةً بين آونةٍ وأخرى من دون سببٍ واضحٍ ، فتتنفس الأشجارُ الثلاثُ غربَتها في وحشةِ الليل .

في العتمةِ المائلةِ أكتبُ مشهداً

في العتمةِ المائلةِ أكتبُ مشهداً مضاءً : نافورةُ تريفي ، بركةٌ ينصبُّ فيها الرذاذُ وتنعكسُ صورُ الجالسينَ والواقفينَ عند الحوافِ العالية . ينتشرُ كثيرون كأنما الخلقُ في حالةِ نشورٍ ، ساهمونَ وضائعونَ وصامتونَ وضاحكونَ أمام المياهِ المتدفقة على التماثيلِ ، عيونٌ قاتمةٌ ، أعضاءٌ لامعةٌ تحت رشاشِ المطر.
الوقتُ مساءً ، روما في الساحاتِ على الدرجاتِ الأسبانيةِ، ورسامو الكاريكاتورا غادروا الساحةَ منذ زمنٍ طويل . مطاعمٌ هادئةٌ . نبيذٌ رخيصٌ ،

وغرفٌ تخلع فيها الهيبيات ُ الآن القمصانَ الخفيفةَ . ساحة ُ سان بيترو مقفرةٌ، يطلّ عليها من الإفريز ِ الدائري العالي حولها مائة ُ تمثال ٍ صامت ٍ لقديسين وقديسات ٍ غارقين في رخامهم الذي سوّده الدخان .

لا أحد يعرفها ولن يعرفها

لا أحدَ يعرفها ولن يعرفها خارج الكلمات ِ ، الكلمات ِ التي ستُكتب ، فقد رحلت ْ منذ سنوات ٍ من دون أن أشعر. بكت ْ فجأة ذات ليلة وهي على طرف السرير ووجهها بين يديها، ذبلت ْ فجأة كأنما توقف سقوط ُ المطر، وسكنت ْ أوراقُ الشجر، يدهشني بكاؤها بعد أن قضينا الليل معا، وتهمس "أنا يائسة جدا.."
لن يعرف أحد هذه اللحظة ِ ، ولن تعرف هي شيئا عن هذه الغابةِ، وعن رغبة ِ قوس ِ قزح ٍ في أن يتحول إلى حجر ٍ. لا الأزمنة ُ تلتقي ولا الأمكنة ُ، ربما الزمن ُ هو ما يلتقطنا في شبكته مثل أشباح ٍ، ربما البوكنفيليا الأرجوانية ُ الفاتحة ُ وحدها

أشدّ خلوداً من خطواتنا ، من أحلامنا وهي تصدر حفيفاً كالريحِ بين الأوراق اليابسة.

في العتمةِ الواضحة

في العتمةِ الواضحةِ ، العتمةِ التي لا نعرفُ هل كانتْ في الأصلِ أم هبطتْ على النقشِ بسببِ آلافِ الليالي التي مرّتْ على المشهدِ ، نلمحُ طرفاً حلمياً في الصورةِ كلها ، حلماً يهيمن على الكائنات . من الذي كان يحلم بالآخر ؟ . هل المرأةُ حلمُ الرجلِ أم أن الرجلَ حلمُ المرأة ؟ أم أن الحديقةَ ، أو ما يبدو كذلك ، حلمٌ مشتركٌ على حافةِ الفجرِ قبل أن تبزغ الكائنات ؟ .
في رواياتِ "سافاثا" المتداولة شفاهةً أن عاشقاً آراميا حاول في أحد أحلامهِ معانقةَ المرأةِ المحبوبةِ ، عرافةِ المعبد الممتلئة التي لم يكن يبصرُ منها سوى هالةِ الشعرِ الأسودِ وهي تجلس بثوبها الأخضرِ الطويلِ وسط دخانِ المجامر، ولم

يكن يسمع منها سوى وسوسةِ الحليّ حين تغادر إلى غرفتها المطلةِ على البحرِ في أواخر الليلِ ، ولم يكن يشمّ منها إلا رائحةَ المرِّ واللبانِ حين تتهيأ للاستحمامِ في حوضها المرمريّ الأزرقِ ، وفي الصباحِ صحا من حلمهِ ليجد أنه تحوّل إلى حجر.

وفي روايةٍ أخرى أن عرافاً تنبأ له منذ الطفولةِ ، أن تقيّد روحَه تميمةٌ وضعتها امرأةٌ في ثنايا شعرها الأسودِ الطويل ، وأنه سيظلّ تائها إلى أن يجد المرأةَ ، في فرجةٍ بين أشجار غابةٍ، أو في أعماقِ معبدٍ مجهول . التميمةُ تقيدهُ وتجذبه إليها ، وتسحبه سواءَ كان في سريرهِ أو في حديقتهِ أو على شاطئ البحر أو في عتمةِ بارٍ في مدينةٍ تعدّدتْ لغاتُ أهلها ، أو كان في أحضانِ امرأةٍ أخرى ، أو اختفى في شعابِ روايةٍ يحكيها لمستمعينَ في زاويةٍ من زوايا مسجدٍ يظلل باحته النخيل .

وفي روايةٍ أخرى ، أن العرافةَ ، وهي ترقدُ عاريةً في سريرها أو حديقتها المحاطةِ بالمشاعلِ الخافتةِ ، راودها حلمُ العاشق عن نفسها ، فتقلبت في سريرها منتشيةً قبل أن تنتبه إلى صوتِ البحر وهبوبٍ يشبه هبوبَ الجسدِ ، فتفزغ إلى نفسها ، وتنكمش وهي تشعر بجسدٍ يطوقها ، وشفتين تلمسان شفتيها ، وتطلق لعنتها على هذا المجهول الذي لم تكن تسمعُ منه سوى ما نسمعه من أمواج البحرِ وعزيفِ أوراقِ الشجرِ، فتبعده بيديها مرتجفةً بين الحلمِ واليقظة .

أعودُ إلى الشظايا ، وأتخيلُ صورةً للوح أصليةً ، أو حكايةً : هذه هي حديقةُ التحولاتِ ، حيث يعترش الآسُ والياسمينُ ، ويتناثر زهرُ الرمانِ في ضبابِ الفجرِ الخفيفِ ، ويترقرق صوتُ النبعِ ، وتسكن الأيائل صاغيةً ، وتتمايل الأعشابُ ، وتتملك الجسدين ذاكرةُ نجمٍ وارتعاشةُ نهرٍ يتدفقُ ، وحفيفُ أوراقٍ تتساقطُ في وقتٍ واحد معا . هذه هي حديقةُ الشهوةِ ، حيث يهرع "آسافُ" و "نائلةُ" أحدهما إلى الآخر فيتحولان إلى تمثالين حجريين ، تحوّلهُ يسبق تحولها لأن لمسَتها تسبق لمسته ، ويتحجّر ما أن يعرفها وتتحجر ما أن تعرفه ، وتنقلهما قافلةٌ عابرة إلى واجهةِ معبدٍ مقدسٍ في وادٍ حفرته سيولٌ قديمة ، حيث تقدم لهما القبائلُ الهمجية ذبائحها ونذورها . هذه هي حديقةُ العاشق الذي يتحوّل إلى حجرٍ حين يغلبه الألمُ ، والحجرِ الذي يتحول إلى عاشقٍ حين تغلبه البهجة .

الطيورُ ربما كانت ْ نساء ً في الماضي ، وكذلك الأشجارُ والندى ، هكذا تقول رواياتُ "سافاثا" ، فنجد كاهنةً تحاول أن تستيقظ ذات صباحٍ وتنظر إلى جسدها فتتحول إلى سدرةٍ تزحمها العصافيرُ، ونجد امرأةً أجنبية تحاول التقاطَ شعاعٍ هاربٍ على المرتفعاتِ ، فتتحول إلى شجرةِ بوكنفيليا مثقلةٍ بأزهارها الحمراء ، ونجد صاحبةَ حانةٍ ساخرةً تحاول الاهتداءَ بالموج ، فتتحول إلى معبدِ لذائذَ في مدينةٍ مطلةٍ على البحرِ، ونجد مغنيةً تحاول أن تتناسق مثل سيمفونيةٍ هائلةٍ فتتحول إلى ندى يتساقط في أماكنَ متباعدة .

الطيورُ ربما كانت نساءً في الماضي ، لهذا تكثر صورُ الطيورِ في كل مكانٍ على شظايا اللوحِ الآرامي ، تحت الماءِ وفوق الترابِ وبين الغيومِ والأشجارِ، حتى فوق المرأةِ الإلهية والعرافِ المرتجفِ ، وهو ما انتبهتُ إليه أخيراً. هنالك طيورٌ بيضاء تحلق عالياً تجعلني أفكر بالابتسامةِ المطمئنةِ على شفتي المرأةِ المضاءةِ بنورٍ قاتم .

لليلِ صوتُ وشوشة

لليلِ صوتُ وشوشةٍ وتمتماتٌ متقطعة ٌ تتباعدُ كما تتباعد الأشياءُ وتنفصلُ ، البيوتُ والساحاتُ وطيورُ السنونو السوداءُ ، وعناقيدُ النجومِ ، وحمامُ ساحةِ "سان ماركو" ، وهذا الفراغ الذي يرفّ حيث كنا أمام الغجريةِ ، وأمامَ حدائقِ الحمراء ، وهذه النسماتُ الرخيّةُ المحملةُ بالبرودةِ في صيفِ الحجارةِ الرومانية ، وزوايا البارِ القليلِ الرواد ؛ دخانٌ ، رائحةُ نبيذٍ ، وعرقٍ، إمرأةٌ واسعةُ العينين يهتز نهداها كلما قدمتْ كأسا أو ضحكتْ وهي تصغي إلى عجوزٍ منحنٍ على كأسهِ يسامر أشباحا ً .

لليلِ وشوشة ٌ وظلال ٌ تتتابع وراءَ نافذةِ القطار الموغل عميقاً بين منحدراتٍ وسهولٍ تغادرها أشعةُ الشمس شيئاً فشيئاً ، تاركةً لنا الظلالَ وحدها ، وهذه التلالَ التي تجمع أعضاءها من الأشجارِ والجداولِ والصخورِ وتهجع في الهزيعِ الأخير من الليل .

لازال الثلجُ عارياً

لا زال الثلجُ عارياً ، إلا أنه مغمورٌ ببياضِ الموسيقى ، باهتزازاتِ الصوتِ الآتي مدوّماً وشاملا ومبتهجاً ، كما لو أن ثلجَ الأبديةُ نفسه بدأ يباشر تساقطه في الهزيعِ الأخيرِ من الليلِ ، كما لو أن جبلَ "فيتوشا" نفسه يختفي تحت البياضِ ويتحوّل إلى أجمةٍ حيةٍ تتشرّب النغماتِ هادئةً مستغرقةً في طفولةٍ منسيةٍ ، كما لو أن هذا الكائنَ العابرَ في أزقةِ "صوفيا" الموحشةِ يمتدّ ظلهُ ويتجاوز الجدرانَ إلى التضاريسِ الخاليةِ تحت الغيومِ البيضاء ، حيث تتراءى الأخاديدُ الجبليةُ وانبساطُ السهولِ وطرقاتُ الصحراء البيضاء .

ما أخلو منه تماماً

ما أخلو منه تماما هو أن أجعل "جين" أقلَّ يأسا ً ، و"ليندا" أقلَّ نأياً. وأنت ِ أشد ّ جسدية ً من هذا الإحساس ِ الصوفيّ الذي أتموج ُ في ناره ِ الساكنة. ما أخلو منه تماما ً هو البكاء ُ العلني الذي ينشج في الداخل ِ مثل حديقة ٍ بريئة . كلُّ شيء يقاطعني . يتدخل ، يقتحم النصَّ ، آتيا ً من كل الجهات ِ ، فأمنحه رقة َ الرذاذ ِ ، حالما ً بحقول ِ نوار ٍ شاسعة ٍ ، تتراءين وراءها ، أتراءى ، ولا نجرؤ أن يهرع أحدُنا إلى الآخر.

ـ تلك هي المعبودة مرة أخرى

تعلق الإيطالية وتخفي عبوسها للحظات

لا زالت الريح ُ تتردد بين الخمائل ِ المهجورة والأنصاب ِ الحجرية .

ناجي يرقد في مقبرةٍ بريطانية

"ناجي" يرقدُ في مقبرةٍ بريطانيةٍ بعيدةٍ تحت عمقِ ثلاثة أمتار. وضعوا شاهداً رخامياً أم لم يضعوا ، الأساسي أنه ضاعَ إلى الأبد ، رغم أننا نقول أن الأشجار تتمايل مشذبةً فوقه ، فوق الأرضِ التي نحب ، هناك على جوانبِ طرقاتٍ مرصوفةٍ تحفّ بها الأزهارُ ، وتخترق شواهدَ القبورِ الحجريةِ مثل متاهةٍ خضراء .

"غالب" تحوّلَ إلى سديمٍ . لم أتخيل يوما أنه سيتحوّل إلى سديمٍ بهذه السرعة لشدةِ براءتهِ وبساطتهِ ووضوحهِ . مشهدُه كعملاقٍ يتجوّل في ساحةِ بيته الدمشقي الخالي يوحي بأنه سيظلّ كذلك دائماً. لم يعدْ موجوداً الآن في أي مكانٍ حتى تحت الأرض حيث لا يحتمل الغموضُ ولا تطيق العتمةُ ولا يفهم الترابُ كلّ هذه البراءة .

أيمكن أن يذوبَ كلُّ هذا في العتمةِ والوحشةِ؟ لا شك أن لنا أمكنةً أخرى نمضي إليها بعيداً عن الجسدِ الملقى على سريرِ مستشفى . لا شك أنه تحوّلَ إلى كائنٍ خفي .

مع مرورِ أصابعها على مفاتيح البيانو

مع مرورِ أصابعها على مفاتيحِ البيانو تتدفقُ موجةٌ سريعةٌ شبيهة ٌ بمرورِ نسيم ٍ يتموّجُ على مياهٍ صافيةٍ زرقاء . ضربةٌ أولى ، افتتاحية ٌ تأخذ بالظهورِ مثل أولِ صباحٍ أو صحوٍ جميل.
صوتُ الموسيقى أشدّ حناناً من الليلِ ، من أوائلِ النهار. همساتُ البوكنفيليا في وحشتها الأبديةِ ، ظلٌّ ونورٌ يتضاعفان ، دوائرُ متوالية من المركزِ، من ضوءٍ نحيلٍ ينسكبُ على الأصابعِ وحدها ، هالةُ الشعر غمامةٌ تمتزج بالمساءِ خارج النافذةِ وبريقِ أشعةِ الشمس الغاربة ، دقةٌ ، دقتانِ ، ثلاثٌ.. تتداحُ الدوائرُ حولها ، تهبّ الرياحُ ، موجٌ يقاطع صوتَ قطراتٍ تمضي بعيد اً بإلحاحٍ ، تواصل الغيابَ في مياهِ بحيرةٍ لامرئية .
الطائرُ الفخاريُّ الملوّنُ فوق غطاءِ البيانو الأسودِ ، ألوانُه تتغير، تشفّ ، تتطايرُ، تتداحُ بدورها أشرطةً ملونة . لا زالت السيدةُ في حديقتها تقلبه متسائلةً ، تنهضُ وتضعه جانباً ، تنساه ، لا زالت الأيائلُ تصغي بانتباهٍ من مكمنها في الغابة إلى

حفيف الجسدين وصفاءِ النبع والزمنِ الذي طرّق وامتدّ مثل رقاقةٍ ذهبيةٍ ، والدوائرِ الآتيةِ من بعيدٍ ، دوائرِ أصوات البيانو الآتية من كل الجهات .

نبع تريفي لاينهمر وحيداً

نبع "تريفي" لا ينهمرُ وحيداً على أجسادِ التماثيلِ المرمرية العارية المعتمةِ ، لا يسيلُ وحيداً على أعضائها اللامعةِ منحدراً إلى البركةِ ، إلى الظلال ، نبعُ "تريفي" يحيط به النسيمُ موجةً إثر موجةٍ ، يغيّر إيقاعهُ، يبدأ بالتساقط أيضا ، تتمهل الأمنياتُ أكثر، توازن تمتماتها مع كلِّ قطرةِ صوتٍ ، وكلِّ هبةِ رياحٍ على مفاتيح البيانو .

يتوقف العابرُ في طريقٍ ترابي

يتوقفُ العابرُ في طريقٍ ترابيّ ضيقٍ تضيء الشمسُ نصفه ، جدرانُ بيوتٍ عالية بلا نوافذ ، البابُ الخشبيُّ ، ثم الدهليزُ ، فالفناءُ المظلل ُ بالنخيلِ والسدرِ ورطوبةِ المياهِ . لا يبدو أن أحداً ظلَّ في هذه الظهيرة غير عصافير الدوري ، وآنيةٍ فخارية ملقاةٍ حتى الفجر، لا أحدَ في الظلِّ أو في النوافذِ المطلةِ على الفناءِ ، لا أحدَ على السطحِ حيث تسطع الشمسُ وتتوهج ، البيوتُ المجاورةُ سطوحٌ خاليةٌ ، والفضاءُ البعيدُ بياضٌ ونخيلٌ نحيل ، ضرباتُ فرشاةٍ باهتةٍ في أقصى النهار.

تستيقظ الكساندرا صباحا

تستيقظ الكساندرا صباحا ً ، فالوقت ُ مبكر ٌ هنا ، لأن الشمس تصل سريعا ً، وتدفيء باحة َ البيت ِ الداخلية ِ، وتتسلل ُ الأشعة ُ النحيلة ُ إلى زوايا الغرفة ، فتلمس هنا مقعدا ً لازالت فوقه قطعة ُ قماش ٍ بدأت تظهر ُ على أطرافها أغصان ٌ خضراء ، وتلمس هناك إناء ً وزجاجة ً نصف َ ممتلئة ، وأكوابا ً ، وعلى الأرض ِ تنبسط فوق ألعاب ِ أطفال ٍ ملقاة ٍ بإهمال . لم يستيقظ أحد ٌ بعد ، فما زال النهار ُ شاسعا ً ... أهو كذلك حقا ً ؟ سكون ٌ يقطعه صياح ُ الديكة ، وصوت ُ ارتطام ِ أقدام ٍ بحصى الطريق . هناك من يمضي في هذا الوقت ِ المبكر ويدور ، ولكن حواف الجبل شديدة الإنحدار ، لذا لن يمضي أحد ٌ بعيدا . ربما يصعدون إلى السماء ِ لفترة ٍ قصيرة ٍ ، وإلا ّ أين يمكن أن يذهب الإنسان في هذه المتاهة ِ الصغيرة من البيوت الحجرية التي تضيء نصفها الآن شمس ُ نهار ٍ آخر ؟ .
الغرفة ُ العلوية ُ ساكنة ٌ وباردة ٌ تحلم ُ بزوار ٍ غامضين ، مثلها مثل الكساندرا التي تتخيل عشرات ِ الوجوه ِ المقبلة ، وعشرات ِ اللغات ِ التي تتردد أصواتها في فضاء البيت ، وعشرات ِ الأيدي التي تتداول مشغولاتها الفضية والشالات المذهبة . سيكون معهم أطفال ٌ ، حسنا ً ، هذه ألعاب تنتشر في الباحة ، وستكون معهم نساء ٌ ويكون رجال ٌ ... من يكونون ؟ لايهم من يكون القادم الجديد ، إنه يُشعر الكساندرا بالثراء ِ والرسوخ ِ والندى ، لذا لن ترفع عينيها عن النسيج الذي تطرّزه ، لن تكلف نفسها مشقة سؤال ِ كل زائر ٍ غامض ٍ عن بلده ِ ، ستتولى هذا جارتها أو زوجها الممراح ُ ، وستستمع بصمت ٍ وهي تشعر بالأنظار ِ تحيط بأصابعها . من هو المنسي ُّ بالنسبة للآخر ِ ؟ هذه القروية ُ الأثينية ُ المنزوية ُ فوق قمة ِ الجبل ِ أم هؤلاء القادمين من أماكن َ بعيدة ٍ لاتستطيع ُ تخيّلها ؟ . إنهم يذهبون على أية ِ حال ٍ ، ويذهب معهم الضجيج ُ الذي أثاروه ُ ، وللحظات ٍ تتشوق الروح ُ إلى الرحيل ِ ، إلى مرافقة ِ هؤلاء الغرباء ِ إلى أماكن َ أخرى ، إلى عوالم َ أخرى ، بعيدا ً عن مناخ ِ البحر ِ ، عن رائحة ِ الأعشاب ِ الجبليّة ِ والصباحات ِ المتشابهة ، بعيدا ً عن هذه

المنحدرات الجبلية ، ولكنها لحظاتٌ ربما ... وبعدها يستيقظ كلّ الناسِ كأنما استيقظ الكونُ كلّهُ .

القصائد

كل هذا الندى

1996 - 1987

(1)

نتمتـم باسمـكِ أيتهـا الأبجـديـةُ
ونحيـا
في أقاصـي العمـرِ
فاكهـةً
نوعـاً من الرمـانِ
والنـدى

مابيننـا
يتمـاثل للحضورْ
شفـافـاً حتى آخر الكلام
نـاءٍ
كمـا رجفـةٍ
في الميـاهِ العميقـةْ
وأغنيـةْ

يـا للنـدى !
لم يكن مـا بينـنا يشبـهُ
شيئـاً

دعي حضـوركِ يتمـاثل
بستاني
للـرياحْ
وديـانكِ
للسـوسنْ

باسمكِ أيتها الأبجديةْ
أيها الشاهدُ الصامت
على غيابنا
باسمكَ أيها الحجرُ الضاحكُ
أيها الصفاءُ المعذّبُ بين نيراننا
نتمتم مذهولين
نعدو
في كل الجهاتْ

أضيءُ كما لم أكن
باتجاهِ وجهكِ
وانتباهةِ النهدين
وبحيرةِ أيامكِ
لا رغبةَ التفاح أردتُ
ولا غمغمةَ الياسمين
نعمتي عليكِ
نعمتكِ عليّ
وقيامتنا الندى

أنظري !
كم اهتديتُ إليكِ

(2)

علّمي القلبَ شيئاً
جديراً بمملكةٍ من دخانْ
بتموّجِ قشٍ
على شاطئ البحرِ
بالصخرِ
هل نحن أبقى من الصخرِ
أم نحن عاريةٌ للمكانْ ؟

(3)

كلما هيّج القلبُ

سربَ قطا
وانحدرنا إلى الماءِ
مالت بنا الأرضُ
أو مال غيمٌ
وغلغل فينا سكونْ

(4)

كلماتٌ

تمضي
باتجاهِ الليلِ
مثقلةً بالحقائبْ
كلماتٌ حدباءٌ
كلماتٌ شابةٌ
كلماتٌ
تتوامضُ
باتجاهِ الليلْ
بعضها
يمحو
بعضاً

(5)

نيرانُ مدنٍ
مغتصبةْ
صهيلُ خيولٍ
ناجيةٍ
من مذبحةْ
رذاذُ مطرٍ
في قريةٍ منسيةْ
والناسُ
رياحٌ
وحجرْ

(6)

في سهول ٍ تمضي
بعيداً
وبساتين لا بلادَ لها
وزهور ٍ
لا يتذكّرها أحد
يسهرُ الشاعرُ أمام كهفهِ
حتى لا تنطفئ النارْ
و يسود العالمَ صمتٌ
مميتْ

(7)

ستكون مبتهجاً بعد خمسين عاماً
أو خمسين ربيعاً
لأن أشجاركَ أزهرتْ
حتى وإن تحوّلت إلى حطبْ
نحن عصفتْ
بنا الريحُ
و أسقطت أزهارنا
قبل أن تعرفَ أيّ ثمار ٍ غامضة ٍ

حلمتْ بهـا

(8)

كـلُّ هذا النـدى في الحدائقْ ،

كلّ هؤلاء النسوةِ المـائلاتِ على بحيرة أيامنـا،

كلّ هذا السفرْ

في ميـاهِ الليـل والأغـاني ،
كـلّ هذا الضجيجِ الذي نثيـره إن فرّت القصيـدةْ
خربشـاتٌ
على جدارِ الكـونِ الهـائل .

(9)

أنـا في هذا الجـانب

وأنتِ في الجانب الآخر من هذا الجـدارْ

تكتبين عليه وأكتـبْ

تتخيلين كما أتخيلْ

أبكـي مثلمـا تبكين

هكـذا نزعـج الكونَ بالعويلْ

ماذا لو انهـارَ الجدارْ ؟

مااللذي يبقى منكِ ومنـي ؟

(10)

اسمـها الوردةُ ؛

لونٌ

وحيدٌ
في عـراءِ الكونِ
يبكي

(11)

بين هذه الأيام
في ساعةٍ محدّدة
في دقيقةٍ محدّدة
لن أكون موجوداً
وستعرفين
أن أيامَ السنةِ مازالت نفسها
لم يسقط منها يومٌ واحد

وستعرفين أيضاً

محالٌ إنقـاذُ مـا مضى
مثلمـا هو محـالٌ
إنقـاذ القـديسـينَ
والأطفـالْ

(12)

يـا للميـاهِ العميقـةْ !

حين تشـفّ عنـها عيونُ التماثيـلِ الحجـريةْ

تشفّ المعابـدْ

ودخـانُ القـرى

وصـراخُ النـادباتْ

بعد كـل مذبحـةٍ أو مجـزرةْ

(13)

ما الذي نفعله بهذه الدفاترْ ؟
دفاترٌ أسلافها الغبارُ والترابْ
وظلالُ القوافل والجيوشْ
وضجيجُ المدن و الأسواقِ
وشموسُ الشرقِ التي ما تني
تشرقُ على الأزمانِ كلّها ...
ما الذي نفعلهُ
بهذا النواحِ الذي يطّوقنا منذ الطفولةْ ؟

(14)

يودّ أن يسهر عند باب كهفهِ الأول ،

يصطاد غزلان المستقبلْ

يودّ أن يرتجل غابةً
ويسمّيها ،
وبيوتاً
ربما يستقرّ فيها أحفادهُ

من الـفراشِ والطيـورْ
والمسـرّاتِ و الأنـهـارْ .

(15)

زهـرةٌ بمـلايين البـذورْ
يمـكن أن تمـلأُ أحـواضَ الطفـولـةْ
و السهـولَ والمنحـدراتْ
حيث تـتـساقط النجـومْ

(16)

في فوضى العشبِ و الجنادبِ والشموسْ

ِ تكفي الطفولةُ

و استباقُ القطا

باتجاهِ المياهِ

وأسئلةِ الكائناتْ .

(17)

في المياهِ
وعلى طرقِ العودة إلى كهفهِ
بدّدَ كلَّ ما اصطادَ بشبكتهِ الذهبيّةْ

أطلق أسماءً على النهرِ
والعشبِ
والنجومِ
والمرأة
ونسي نفسه
ووقف يتساءل أمام عينيها :
أبحيرةٌ أنا ؟
أجدولٌ ؟
مرآةٌ مسحورة ؟

(18)

ما الذي تفعله بي هذه السلالُ المصنوعةُ من القشِّ و سبلاتِ القمحِ و النخيلِ ؟

هذه الألوانُ الأرجوانيةُ والخضراءُ و الزرقاءُ ؟ هذه الطازجةُ الخارجةُ لتوّها من القدورِ وهي تغلي في الهواءِ الطلقِ ؟ هذه الرائحةُ النفّاذةُ للتين والأعناب والبلحِ الذي كان يوماً ؟
هذه الشمسُ التي تلمس لمعةَ القصبِ ؟ هذه الخضرةُ التي تتحوّلُ شيئاً فشيئاً إلى الأصفرِ ؟
هذه الأمُّ التي تحرّكُ أصابعها كما لو أن فيها ضراعةَ الأسلافِ وحلمَ أن يبقوا ؟
أيتها الريح التي هزّت سنابل طفولتنا ؛
ما زلتِ تمرّين على أشيائنا ،
ذاهبةً

باتجاهِ البحرِ،
ما زلتِ قادرةً على توليد السنابلْ
في أحضانِ الأمهاتْ .

(19)

لا شيءَ هنا
مما لا يشبهكم أيها الأصدقاءْ
أيها الذاهبون في الهواءِ
والورقِ والتلالْ
أيها الساهرون
مثل بحارٍ مجهولةْ
على كواكبَ ممعنةٍ في السديمْ .

(20)

أيـها الأطفـال ما الذي تفعلونَ
بالرياحِ التي تهـبُّ من شرقِ المتوسطِ
علـى الموانيء والسـاحاتِ العـامةْ ؟
ما الذي تفعلون بالزيتـونِ الذي لا زمنَ لـهُ
غير المـاضي ؟
بحجـارةِ القـرى و الجـرارْ
و الأسـماءِ التي تقـذفون بـاتجـاهِ المستقبـلْ ؟
ما الذي تفعـلون
أيـها العـازفون في القاعـةِ الخاليـةْ؟

(21)

سأطلقُ كلّ ما فيكَ
لتكونَ لي
أيها الطائرُ الحجريُّ
ياصمتَ قيثارةٍ ضائعةٍ
في ضبابِ القرونْ
حيث يجد مسّراتهِ قلبي
وتجد أسماءً لها
هذه الوردةْ
وهذه الصيادةُ الماكرةْ

وقبائلُ الأعشابْ
وأغنيةُ الجذورِ التي
ستتحوّل إلى حجرٍ بعد قليلْ

سأطلقُ كلّ ما فيكَ
مفكّراً بالدموعِ التي هي
أحفادُ الأعاصيرْ
بالرسائلِ التي لم تُكتب
لأنها تمضي باتجاهِ الليلِ دائماً
باللغاتِ التي هي طائرٌ مرتبكٌ
لايجد ما يسمّيه
بين جسدينْ

أيها الحجريُّ
ياصديقي
يا أخي
يا شبيهي
ياضحيةَ الأغنيةْ
يا خفقةَ الريحِ بين الأوراقِ اليابسةْ
أيها التوازنُ الجليلُ الذي
يحفظ الأغنية من أن تميدَ بنا
ويترك لنا فسحةً من الزمنْ
نتبادلُ فيها
خواتمنا الحجريّةْ

(21)

سلاماً لغيمٍ يبدّدهُ الوقتُ ،

للنادباتِ بعمقِ الطفولةِ ،

للأرضِ تصبح منفى ، لمن
أمكنتني من النهرِ والغابِ وانتظرتْ
أن يتمّ رسالته الوقتُ، أن يستفيضَ ،
سلاماً لطيرِالكلامِ
يرفرفُ بين السطورِ
ويتركها
للبياضِ وصمتِ الحجرْ .

(22)

في مطارٍ بعيدٍ سمعتُ اسمكِ الذهبيَّ ،

سجينَ القصائدِ والدمعِ والأغنياتِ ،

رفيقَ النبيذِ
وصيفِ العواصمِ والحلمِ
تحت ظلال المساءِ ،
سمعتُ رنينَ الغناءِ

يرجِّعه البحرُ والريحُ
والشجرُ الساحليُّ
وزرقةُ تلك السماءْ.

(23)

سربٌ من الدوريّ

يتبعني ويألفني ،

عصافيرُ الطفولةِ أينما مرَّ المكانُ

و أينما جاء الزمانُ

تطايرتْ أو نقّرتْ ،

تلك العصافيرُ التي كانت ترافقني وتهربُ من شباكي ،

ما تزالُ رفيقتي

بين الحدائقِ والشوارعِ ،

في المطاراتِ البعيدةِ ،

في انحناءِ العمرِ والطرقاتِ ،

أيتهاالرفيقةُ في الحرائقِ والمنافي

والحكاياتِ السعيدةِ ما الذي يعنيه أن نبقى معاً ،

سرباً من الدوريِّ

أو وطناً بسيطاً هارباً في الريح ،

أجنحةً ، فضاءً ؟

ما الذي يعنيه أن تبقى السلالةُ في فضاءِ الكونِ ،

في التكرارِ ،

لاوطنٌ نعود إليهِ ،

أكثرنا ينالُ مصيرَ تمثالٍ من النسيانِ

أو شجـرٍ،

وينسحـبُ الفضـاءُ

وتنتـهي الطـرقـاتُ ،

أرضٌ بعدها أرضٌ ،

وتنهـدم الموانـيءُ والجسـورُ

وتهـرم الفـلواتُ ؛

أيّ قبيـلةٍ ذهبيـةٍ كانت ترافقـني

وأجهـلُ من تكـونْ ؟

(24)

تتشابك أغصانهُ والجذورُ ،

تغطّيه شمسٌ فشمسٌ ،

وعاصمةُ القلبِ أبسطُ

من لحظةٍ أو خريفٍ ،
وأبعدُ من غابةٍ ينهضُ الكستناءُ وحيداً بها ،
ثم تهمي ثلوجٌ
وتهمي ،
وينسى الصدى أن يعودْ .

(25)

أيها الطفلُ الذي

ما لاعبته الريحُ
ما مسّ له الموجُ يداً
أين تهيم الآن ؟
في أي الصحاري وسّدوكَ الرملَ
واغتالوا بكائي ؟

(26)

حلمتُ بمقهى
بسقفٍ خشبيّ أحمر
في مطرٍ غائمْ

باٍثنين
يقولان شيئاً عن الماضي
وظلالِ العابرينْ

حلمتُ بمقهى
ولكن ليس هذا
بالتأكيد
حيث لا أحدَ
سواي
مع بريّةٍ شاسعةْ .

(27)

أنتَ سمّيتها
وتروّيتَ
كي يأخذ اللونُ شكلا
وتتخذ الأرضُ معنى
ويكتسب الشجرُ الساحليّ
ظلال الشجرْ
أنتَ سمّيتها
وتجولتَ بين الكلامِ
ووديانهِ
نرجساً
أو ندى
أو مطرْ
أنتَ سمّيتها
وامّحيتَ
فما عاد يظهرُ منكَ سوى
ما يرجّعه البحرُ في صمتهِ
من أثرْ

(28)

معجزةٌ أن نسمع صوتاً
أو حجراً
أو نأمةَ ريحٍ
في هذا الكوكبْ
معجزةٌ أن نبصرَ
نهراً يجري
في غير كتابٍ
أو خارطةٍ
أو مكتبْ

معجزةٌ أن نتخيّل أغنيةً
تتحدث عنـا
أن نتخيّل طفلا يولدُ مثل الأطفالِ
ويلعبْ
ماذا يحدث للعالمِ ؟
هل مازال البحرُ نقيـاً
موجوداً
يلطم شطآنَ الأرضِ
ولا يتعبْ

(29)

I

للضوءِ أن يبقى
للرغبةِ أن تهدأ
للهدوءِ أن يستقرّ
هكذا يذوبُ الحلمُ
هكذا يمضي الأطفالُ
في الأقاصي

II

أيّ باديةٍ هذه
وأيّ مدى ؟
كنّا نغلق أبوابَ الخرافةْ
كي نبعد الأطفال عن غاباتها
من أين جاءت هذه العتمـةْ
فطوّحت بألعابهم مبكـراً
أعطتهم الحنينَ للبيتِ
والقطةِ

والدبّ القطني
والعصفورْ
أعطتهم
غوامضَ
تتأرجح في أرواحهم ؟
يا إلهي
أتسمع نشيج الأطفال الذين سُرقتْ
طفولتهم ؟

III

لماذا صحوتما مبكرين ؟
سأهديكما شيئاً للنسيانْ
الضوءُ لم يعد ملوّنـاً
ما حولنا مطرٌ أسود
ولكن تذكرّا أن أيامنـا
كانت أكثر جمـالا ..
هل تذكران باص المدرسةْ
وانتظارنا ؟
هل تذكران الكتب المدرسيةْ
والمعلمة التي توزّع الفراشاتِ
على المتفوقين ؟
هل تذكران الحدائق ؟

أصواتُ القذائف
تكسر نوافذ الروح
وتبعثر الأسئلةْ

IV

نامي ياطفلتي
نم ياطفلي
الآن يلتقط الأطفالُ الأحلام
لأنهم دخلوا حدائقها مبكرين
بعد قليلٍ
لن تجدا ما تلقطانْ

(30)

مطرٌ خفيفٌ
ربمـا انتثرتْ زهورُ البرتقالِ
وربمـا انتبه الجسدْ
هذا المساءُ حديقةٌ مثلي
ومثلكِ
يستفيقُ بلا بلدْ
لاأرضَ للرمّـانِ
لا نهراً لظلي
أو لظلّكِ
لا أحدْ
مطرٌ خفيفٌ للجذورِ
ونسمـةٌ مرّت
سريـعاً
بين أوراقِ الجسـدْ

(31)

عسلٌ برّي
تفاحُ غاباتٍ
وتينٌ ناضجٌ
في حدائقَ مهجورةْ
في مساكنَ محطّمةٍ مقلوبةْ
تحت نجومٍ لا تنتهي
لأناسٍ لم يعد يذكرهم أحدْ
في بحرٍ
نحاول أن نجد له نسباً
في صحراءَ
خاليةٍ
نحاول أن نجد لها
بضعةَ فصولْ

(32)

يجيئنا الليلُ بالحكمةْ
تحلّقُ طيورُنا عالياً
أحياناً بلا ليلْ
باحثةً عن خيطِ مغيبٍ
ولا تهتدي
أحياناً
تتمايلُ أشجارنا باتجاهِ الريحِ
ولا تصلْ
تنصفنا قصيدةٌ لم تكتملْ
شظيّةٌ أو شظايا
في فضاءٍ هائل

أفسّرُ الليلَ بالقصيدةْ
والقراءةَ بالغيابْ
والجمالَ بالمحوِ

استحضرُ الغاباتِ خاليةً
من الطرقاتْ
وحرّةً من الذكرى

السماءُ منخفضةٌ
فوق المساربِ الموصوفةْ

بالبكاءِ أفسّرُ الحرّيةْ

العمرُ أضيقَ من معناه

تبهجني القصيدة بالأصداءْ

بهجةُ القولِ
اعتيادْ
وبهجةُالشعرِ
مانصير إليهْ

نحن مجهولون بلا تأويلْ
حافةُ وجدٍ
هوّةٌ ترفّ فوقها الكلماتْ
وحين نقولُ
نفقد ليلنا
وكلّ ليلْ
يشغلنا الحجرُ والماءُ
تمحونا الفوارقُ والحدودْ

يجيئنا الليلُ بالحكمةْ
نكتب
نغني
نحتفل
كما لو إننا نستحمّ بموسيقى قديمة
قدم العالم
نحيا ما لا يقال
وأحياناً يقولنا الكلامْ
أو تحرّرنا الأصداءْ

أفسّرُ بهجتي بالقصيدةْ
بما ينشأ ويصيرُ علاماتٍ
قبلها النسيانُ
وكل نسيانْ

لا المرأةُ موجودةٌ ولا الحديقةْ
لا الليلُ

ولا كآبة الظهيرةْ
نحن علاماتٍ تتوامض
نتّسقُ حين تتسق
مثقلين بالكامن والمحتملْ

الكونُ ليلٌ
والرحلةُ روح
مثلما تتغير الكلماتُ نتغير
لا شيء في الخارج
لا شيء في الداخلْ
ينصفنا فضاءُ القصيدة
حين يهسُّ فيه النصلُ
ويمضي
تنصفنا شفافيةُ العدم
ذاكرةُ الليلِ
وانعطافةُ النهرِ
ومسارُ الأجماتْ

تبعثُ أحلامها
فينا الكلماتْ
عادلةً عدالةَ الغيرة
قاسيةً قسوةَ الهاويةْ
تشمُ أجسادنا بأبديةٍ مؤجّلةْ

نحن موشومون بوخز الكلماتْ
دمنا لذيذٌ
بياضنا مرهقٌ
شظايانا تضحك أو تبكي
أنحن هذا الكلّ
أم نحن اتساقٌ ورجرجةْ
بدءٌ ونهايةٌ
تمايلُ البوكنفيليا
ووحدةُ أشجارِ الرمّانِ
وهذا النهرُ المستيقظُ

في صحراءْ ؟

لنا أحلامنا أيضاً
مثل كلّ المدائن الأثريةْ
مؤجلون أيضاً
مثل كل الصباحات المفقودةْ
نحن أبوابٌ في صحراءْ
موشومون وأحرارٌ
ذرّاتٌ وموجاتْ
ليلٌ بلا غفرانْ
تأخذنا غابةُ الكلماتِ
تشتتنا الممرّاتُ
ننبسطُ أو نتقاطعُ
والندى ذاكرةْ
والضبابُ خفيفٌ
والمأوى أصفى من ينبوعْ

تبعث السطورُ فينا ليلها
فتنةَ الغامضْ
وعذوبة الواضحْ
وما بينهما اشتهاءْ
في أي منعطفٍ نسينا أن نمضي ؟
في أي وعرٍ تركتنا الحكاية ؟
في أي شجرٍ
تستيقظ روحُ الليلِ
وتهمس فجأةً من أعماقها المنسيةْ ؟

ها نحن ندخل في الحكايةْ
كلُّ الساعاتِ تدقّ في ليلِ القصيدةْ
في كل مكانٍ يُسمع الرنينْ
يتساقطُ الثلجُ
ويتناثر زهرُ الرمانْ
وتضلّ الكلماتُ طريقها

في غابةْ

(33)

منذ الأيامِ القديمةْ
يتواصلُ قرعُ الطبولِ
في آخر الأسبوعْ
حيث يجتمع زنجُ البصرةْ
حول هيكلِ سفينةٍ خشبية
مرفوعٍ عالياً
يرقصون ويشربون
وحين يأخذُ السكرُ منهم كلّ مأخذْ
يرحلون وهم يدمدمونَ
بكلماتٍ غير مفهومة
على سفينتهم

(34)

تحت الرذاذِ الأبيضِ
صوتُ موسيقى
طفلٌ مع كمانهِ
عند ناصيةِ الشارعْ
وعجوز ترمي ليرةً خضراءْ
في قبعةٍ سوداءَ
تحت قدميهْ

(35)

على ساحلِ الأدرياتيكي
تغني ليندا أغنيتها
أغنيةَ هيواثـا
للآرامي التائهْ

(36)

ساحةُ بياتسا نافونا !
مطرٌ خفيفٌ
رسامون ،غجرياتْ
هيبيون ، سائحونْ
يتهيّأون للرحيلِ
إلى المطاعم الجانبيةْ
بعضهم يمضى منفرداً
بعضهم في جماعاتْ
وبين آونةٍ وأخرى
تُسمع ضحكاتٌ متناثرةْ

أو صرخاتٌ
تتساقط في العتمةْ

(37)

الناسُ في عمّانَ حلزونٌ دبقٌ
يلتصقُ بالصخورْ
نصادفهُ أحياناً يشرب القهوةَ
في مقهى الفاروقي
وأحياناً يلهو في قاعةِ مسرحٍ
أو يتضارب في ساحةِ تزلجْ
أو يتزاحم في الساحةِ الهاشميةْ
أمام المدرجِ الروماني

(38)

في ظهيراتِ أثينا
يتطاير الحمامُ في ساحةِ السنتجما
يشتري الأطفالُ أكياس الذرة الورقية الصغيرة
من بائعٍ عجوزْ
يعتمر قبعةَ سائقي الشاحناتْ

(39)

في الهزيعِ الأخيرِ من الليلْ
يباشرُ تساقطهُ
ثلجُ الأبديـةْ

(40)

أجمةٌ حيّةْ
تتشربُ النغماتْ
مستغرقةً في طفولةٍ منسيةْ

(41)

نجني معاً
أوراقَ الكرمةِ الطريّـةْ
قبل أن تغيب الشمسْ

القصائـــد اليونانية
1983

الأكروبولس

أميراتٌ ذهبياتٌ
من سلالاتٍ منقرضةْ
يتقدمن في فضاء أزرقٍ
حاملا تٍجرارَ النذورْ
والضوءَ الآتي
منذ فجرٍ بعيدٍ
يلا مس وجوهـهن الجانبيـةْ
منحدراً على طياتِ الملا بسْ
وأعضائـهن الشفّافـةْ
وفجأةً
تحت ظلالِ الأعمدةْ

ومع أول إستدا رةٍ نحوالجمـهور ْ
يتجمّـدنَ غارقا تٍ في الرخا مْ
مائـلاتٍ للزرقـة ْ
ولونِ الترابْ
وعطـنِ الخضرةِ
في صدوعِ الصواري القديمـةْ

يـوم الخليقـة

على الدرجا تِ الحجريّةْ
يسترخي السا ئحونَ
ذوو السراويل المتسـخةْ
والصديـقاتِ الشـرها تْ ...
أ قدا مٌ عا ريـةٌ
وشفا هٌ مخضـّرة
من أ ثرِ البيرة
أو الماريجوانا ...
وحيث كانت تـقـف أثينا
بخصرها العميـقْ

مطلةً على مدينتها
أ قعتْ في فستانٍ ساحلٍ
وشعرٍ مهملٍ
إمرأ ةٌ بد ينةْ
بحجمِ خرتيتٍ
أصابه البُهاقْ

ما را ثون

يتحدث المرشدُ السيا حيٌّ
عن حربِ ا لبلوبونيز
وحطا مِ ا لمعا بدْ
وروا ئعِ برا كستليز
يحكّ قفاهُ بضجرٍ
أو يهرش صلعته
أما م عجائز ألما نياتٍ
تفوح منهن رائحةُ البولِ
وا لمقا عدِ ا لجلديةْ
وزيتِ البطا طا المقليّةْ

كا زانتزاكيس

كـيـف كتـبَ كازانتـزاكيـس أشـعا رَه ؟
من أين جاء بالآلهـة والأبطالْ؟
أية أرضٍ خـلـقَ
للحـريـةِ والموتِ
وزوربـا ؟
أية يونـا نٍ تحـد ث عنـها هذا المعـتـوهْ ؟

لو حـدّ قَ في هذا الليلِ الـد بقِ
والأشجارْ
وعـناوين المراقصْ
وأصغى لـزعيـقِ الدراجات اليابانـية

وصادفَ في العتمةِ
إمرأةً لا هثةً من الوحدةْ
لو توقف لحظة على بابِ الهلتونْ
وصدمته النسوةُ المتأرجحاتُ
بين الأكلِ واللذةْ
لكان عليه أن يبصقَ
بدل أن يقول الشعرَ
أو يمدح الأنسانْ
أو يمجّد نبيذ مقدونيا

ألهذا لم يعطهِ أحد روحاً
ولم تمرّ على جبينهِ النائ
ظلالُ الطقوسِ الكنسيّةْ ؟

أفروديت

أثينا هذه لم تخرج
من النهرِ الذي لانعرفه مرتين
أو وصايا الذائبِ في البركانْ
أو سا حلِ القصائدِ الهوميريةْ
أثينا هذه خارجةٌ
من مصا نعِ السيا رات اليابا نية
وا لتبغِ الأمريكي
وخضروات السوق المشتركةْ

المحارب المجهول

المزيدُ من الصمتْ
ويتحوّل الحارسانِ
إلى دميتين من الشمعِ الأحمرْ
سراويلَ بيضاءَ ضيقةٍ
وأحذيةٍ حمراءَ تشبه قواربَ الصيادينْ

المزيدُ من الحبوبْ
ويطير الحمامُ الرماديُّ هادئاً
بين نشوةِ الأطفالِ
وفضولِ المصورينْ

حين تمّ تبديل الحرسِ ،

حـرسِ المـحا رب المجـهولْ ،
كان الحمـا مُ كسـولاً
والمـا رّةُ ذاهبينْ
والأطـفا لُ مشـغولينْ

ريتـسوس

في مكـانٍ ما من أثيـنا
يـسعـل ريتـسوس
ربمـا
يمـدّ يديـهِ
يلمـس مجمـوعـةَ أعما لــه الكا ملـة
يتـذ كـر زمـناً
ووجـوهاً
وأمسيا تْ
لكنـه لن يجرؤ عـلى الخروجِ
ورؤيـةِ هذا النسيم
يجـرف أوراقَ الخريف
لن يجرؤ على التحـديقِ
في أسمـاءِ الحانات
وشـركاتِ السياحةْ
لن يطيق قراءة دليلِ السـائح الأجنبي
إلى أرضِ اليونانْ
أو رؤيـة هذه العجـوز الصمـاء

تبيع الخردواتْ
على ناصيـةِ الشارع

نبـوءة د لفـي

ثلاثـةَ أشيـاءٍ خلقتـها الآ لهـة :
النجـومَ لتـذهب
وتعـودْ
الأشجارَ
لتذهب
وتعـودْ
الأنسـا نَ
ليذهب
ويتلا شى

طروادة

تقاسم الثلاثة :
هكتور
ومنيلاوس
وأخيل
هيلين الجميلة
حتى لاتقع حرب طروادة
وجلسوا
في مشربٍ عتيق
يعبّون خمرةَ " أوزو "
بينما النادلُ
يذهب ويجيئ
طوال الليل
وصفيرُ القطاراتِ
يشقّ طراوةَ فجرِ أثينا

سقـراط

خيّـره الحلـفُ الأطلـسي
بين المـوتِ
و المنفى
فاختـار الخـروجَ
في المظاهـراتِ السـلميةْ

حادثة

ربما كانت هي التي خرجتْ
من القصيدة
في ليل أثينا
ووقفتْ وراء بابي
ممتلئةً بكل ما هو خالد :
البحرُ
والنارُ
والنجومْ

ربما كانت هي التي دقتْ البابَ
نابضةً
بكل ما هو خالد :
السفرُ
والنبيذُ
والليلْ

ربما كانت هي التي تلاشت
في كل ما هو خالد :
الشعرُ
والصبا
والزمانْ

ها دريـا ن

تذكـرةٌ واحـدةٌ
بمائـةِ دراخمـة
للمـرورِ أمـام هادريان العظيـم
وقـد فـقد رأسـه
وسـاقيه
وقُطـعت ذراعـاه
ونُصـب وسطـه الأمبراطـوري
بعـد أن رفعـه الحمـقـى من التـراب
ليعاينـه جيـلُ ما بعـد الألف الثاني
تحت شمس الأيغورا القديمـة
بين نسـماتِ أشجـار البندقِ
والزيتـونْ

تراب

لن ندخلـها أبـداً
هذه الجنّـاتُ التي كانتْ
هذه السماواتُ التي مرتْ
والتمعت تحتـها
نيرانُ المذابح والطقوس
هذه النسماتُ التي عبثت بأرديـةٍ أرجوانية
ذات صباح
لأناسٍ توهّجوا وانطـفأ وا ...

كلُّ شئ ذهب معهم :
تحـوّلَ إلى تـرابْ
الشجـرُ
والسماءُ
والرياحْ

كل هذا ...

هذه الأعمدة
والطرقات
والآلهة
ماظلّ في صورةٍ بشرية
وما اندثرَ
وعاد الى أصله الحجري
من أجل أن تتلاشى الحياةُ
مستسلمةً
للفناءْ

يا للمهمةِ المضحكةْ!

حلـم في مقـهى

تحت هذي الشمس
وكل شمسٍ
تطلّ في هذه السـا عة
على ميادين العواصم الغاصّـة بالمـارّة
ربمـا مررتِ مرةً أخرى
والتفتِ اليّ غـارقاً في الظلّ
والخضـرةِ
ثم واصلتِ سيركِ
مثل المـرة الأولى

ربما ضحكتِ
وسألتِ من أين أنا
وقررتِ بينكِ وبين نفسكِ
أن تذهبـي معي
مثل المرة الأولى

ربما آمنتِ أننا عاشقـان
في أسطورةٍ قديمـة
عدنا

لنبدأ التكوين
مثل المرة الأولى

أبـديـة

هل يكون أن أراكِ
مرّةً في قاعـةِ المتحف
أو بين أطلا لِمدينـةٍ أثرية ؟
هل يكون أن أراكِ
بين العابرين
أو أمام دكانٍ يبيع الوجبات السريعة ؟
هل يكون أن أراكِ في المطـارِ
أو محطـة القطـارِ الذاهب شمالاً ؟
هل يكون أن نقـفْ
مرةً أخرى
متضاحكين
كأنمـا لا شئَ يحدث
بينما يتباعـد بعضنا عن بعضٍ
حتىّ آخـر الأبديــة ؟

تلك الأغنيـة

كانت تغني
كلماتٍ
ذات شموسٍ
وشواطئ
أو أجراسْ
ذات ظلالٍ
تـتـفجر مثل النبعِ
أو الأمواجْ
ذات رنينٍ
يتساقط مثل الماءِ
أو الأغصـانْ

غسـا ن

في السفينةِ الراحلة
إلى الجزرِ اليونانية
لم تبقَ امرأةٌ
أو رجلٌ
من ألمانيا
أو أمريكا
أو اليونان
إلاّ وابتسموا لغسان الصغير
وعينيه الجميلتين
وسألونا بفضول :
من أين أنتم ؟
وكنا نجيب بحب ورغبة :
من فلسطينْ...

كان الألماني يلتزم الصمت
والأمريكي ...
أما اليوناني العجوز
فكان يواصل الحديث
ويسأل عن التفاصيل

مشـهد

في سفحِ برناسوس
من نبع كستاليا المقدس
وحتى معبد أبولو
تلوّى الطريقُ المرصوفُ

بحجارةِ المعابد
وخضرةِ الشقوق
وجذورِ الأعمدةْ
صاعداً يحمل الخلقَ
رجالاً
ونساءً
وأطفالاً؛
أمريكيون من لويزيانا
ألمان من بافاريا
فرنسيون من بريتاني
هنودٌ من كشمير
وعربٌ
من اللا شئ .

أثينا،12-13 سبتمبر، 1983

القصائد

أســـماء ذهبية

1982

هكذا استيقظ الأجداد

لم يرتعشوا مثلَ أمطارٍ

ولا تطلعوا مثل صحراءٍ

أمام أحفادهم الذين نقلوهم الى السفنِ النهريةْ
كانوا صامتينَ
يخرجون من الصخرِ
والطينِ
والغبارِ
تحت رنينِ المعاولْ
وحفيفِ أوراقِ الصنوبرْ
والمطرِ المشرقيِّ الخفيفْ
ذاهبين كما ذهبوا ذاتَ يومٍ
في الزمانْ
راحلين كما ارتحلوا ذات يومٍ
في بياضِ الرخامْ
غامضين كما هم في الأساطيرِ
والغاباتِ
والوديانِ الهائلةِ الأغوارِ
والصحارى
وترانيمِ الأمهاتْ

لم ينتفضوا وهم يتمدّدونَ بكاملِ
أسلحتهم
وأثوابهم السابغةْ
ولغاتهم المنقوشةْ
على الصدورِ والأكتافِ
والقواعدِ الحجريةْ
استسلموا مثل كل التماثيلِ

للتياراتِ البحريةِ
والشموسِ
وعتمـةِ القاعات الزجاجـيةْ
وفضولِ العلماءِ الغربيينْ

أيتها القصيدةُ التي لم تولد آنذاك
أيتها الخيولُ العمياءْ
أيتها العيون البلهـاءْ
كـم خريـفٍ سيمـضي
حتى يستيقظ الأسلافْ ؟
كم طفلٍ سيتعلم بما يكفي
ليغرس أصابعه في الترابْ
باحثاً عن آبائهِ
وأمهاتهِ ؟
كم شاعرٍ سينضج للموتِ
بما يكفي
لاستردادِ شهوةِ النشيدِ
وتاريخِ الوردةْ ؟
كم مدينةٍ ستحترق
بما يكفي
لاستردادِ السماءِ الصافيةْ
وأسواقنا الشعبيةْ ؟
كم شعوبٍ ستولد

بما يكفي
لتسمع هذا الأنينَ القادمَ
من حريقِ التاريخْ ؟

بعـد الطوفــان (1)

الذين يضمحلونَ
ويسقطونْ
على طرقِ الماضي
والمستقبلْ
المهاجرون إلى الجامعاتِ
والوظائفِ
والحروبْ
القرى والنخيلُ
والنجومْ
الفنون الضائـعةُ
والحرف الشعبيةْ
العواصمُ المـهترئـةُ
والأنهارُ الجافـةْ ؛
أسمـاءٌ
أسمـاءٌ
أسمـاءٌ كثيرة
تأخذهـا الى ملجـأ اللغـةْ
تتسع لـها القصائـدُ
ويضيق عنها ليلُ القلبْ
...ولكن
حين تنحسـر المياهُ
والمصارفُ
والحكوماتُ
وشركاتُ التسويقِ
ووكالاتُ الأعلانْ
وتتلفت حولك باحثـاً
عن أرضٍ
فلا تجدْ
ما الذي تفعلـهُ
أيها الشاعرُ
بأسمائـكَ الذهبيـةْ ؟

بيت

بيت

ينتـظر القادمـونَ
زهـرةً
أو أغنيةْ
أيها البيت الذي كانَ
ولم يعـدْ

من أنتـم ؟

من أنتـم أيها الأصدقاءْ
يامن تقرأونني بعيـداً
وتنصتونَ
لوقعِ الخطى عند بابي
وهسهسةِ الشاي في قدحي
ولثـغةِ طفلي
وحيرتي مع القصيدةْ
وهي تجوس ظلامَ الأزمنةْ ؟

فـي المنـفى

إرتجلوا قبراً لأخـي

وعطـوراً
وعرائـسَ
يرحـلن في غيابـه الطويلْ
إرتجلوا قافلـةً تعبر في صحرائـهِ
في مقبل الأيامْ

أبـي

الكلماتُ جسدٌ
ونحيبْ
وأبـي
تائـهاً
يخطو
على مشارفِ القرن العشرينْ

حين كان " سيزان "
يفتضّ خمسةَ قرونٍ من التصويرِ في بريتاني
كان أبـي
يتعلّم الأبجديةَ
بالبوصِ الناشفِ
وشحبارِ المواقدْ

حين كان حريقُ الثورةِ البلشفيةْ
يضيءُ مآذن آسـيا
ويبصق العمالُ والفلاحون في حجراتِ القيصر
كان أبـي
يخرج من ميراثِ الأتراكِ
الى ميراثِ البنادقِ الأنجليزيةْ

وفي الأربعينات
حين كان أبناء البرجوازية الفلسطينية
يغادرون مطارَ اللدِ الى كيمبرج
وهارفاردْ
كان أبـي جثـةً مهشّمـةً
مسحوبةً من الريـفِ
الى غرفـةِ التوقيـفِ في حيفا

أيها الطفلُ الشيخُ
ما الذي تفعله بريـفٍ شاسعٍ تجتاحهُ
مستعمراتُ اليهودِ وجيوشُ الأنجليزْ ؟
ما الذي تفعله بشعبٍ شاسعٍ
تحوّل الى طباخينَ

لوجباتِ المستشرقينَ
في مضافاتِ البدو والواحاتِ
وعواصمِ الخلفاءِ
وتحت ظلالِ المدن الأثريةْ ؟

موت صانع السفن

أنا الصانعُ القديـمُ
للأفـقِ البحريِّ
والبلادِ العجيبـةْ
خذونـي أيـها الأصـدقاءُ
ملفـوفـاً بخشبِ الهـندِ
وعطـورِ بيهـارْ
ارفعونـي عالـياً
بين أنقـاضِ السفنِ
والشاطئ الخـالـي
منذورٌ خشبي للماءْ
وصاريتي
للريـحْ

مقايضـــة

ذات صبـاحٍ
في منتصفـِ القرن التـاسع عشرْ
في قـارةِ آسيـا
على السـاحلِ السـوريِّ
في قلبـِ دمشقَ المعتمْ
في حـارةِ المهاجرينْ
حيث نسي النـاسُ الأبجديّـةْ
وانتشـرت القبائلُ المتاجـرةُ بالسمنِ
والأصـوافْ
وتآكلت فسيفساءُ المسجـدِ الأمويّ
بتأثيرِ الرطـوبةْ
ولغطِ المصلّـينْ
كان السـائحُ الأجنبي
بخمـسِ ليـراتٍ ذهبيةْ
يشتري أكـوامـاً
من المخطوطاتِ العربيـةِ المهملـةْ

أرخـبيل القصـائد

قصـائدُ للطفولـةْ
قصـائدُ للبـيتْ
قصـائدُ للأمهـاتْ

قصـائدُ للأصدقـاءْ
قصائـدُ
...قصائـدْ
لكلٍّ
المفقـودينْ

شـهادة

في القصـصِ القديـمْ
يفتشُ الأنسانُ عن شئٍ يأكلـهُ

دائـراً
من الصباح الى المسـاءِ
...فلا يجـدْ
ولكنّـهُ
كان دائماً
يعود إلى بيتـــهِ

رومـا في الظهيـرة

لعجوزٍ إيطاليـةْ
تصنع النبيـذْ
وتؤجـرِ غرفَ بيتـها

لقـاءَ لوحاتِ الرسامين العربْ ،
للسـاحاتِ المكتـظّةِ بالغجـرياتْ
ورسّـامي الكاريكاتورا
وبائـعي الأحذيةْ
والخرزِ الملـوّنِ
، والمتشردينْ
لهـذا السيلانِ البشـريِّ
تحت الظـهيـرةْ
بين الكوليزيه والفـورم
حامـلاً علبَ البيـرةِ والسندويشاتِ
وكاميرات التصوير ،
لصديقي حاملِ جوازِ السـفر المزوّرْ
وفروتـهِ المسروقـة من تاجرٍ حلبي
لثوريتـهِ المزمنـةْ
لأغنيتهِ التي لاتصلْ ،
للفتيـاتِ الباحثـاتِ عن صديقٍ
وغرفـةٍ
يلقين فيها أقدامهن العاريـةْ ،
لرومـا الأزقـّةِ والأطفالِ
وصانعـي الجلودِ
والوجبـاتِ الرخيصـةْ ،
لشارع " كافور " الهـادئ
والخالي من المـارّةْ
حيث يعتكف البرجوازيونْ
وتتسـاقط أوراقُ الخريفِ
على الرصيـف المبتـلّْ ،
لكنيسـةِ " سان بيترو "
لنافورتـها القاتمـةْ
وتماثيلها المائـة
وقبتهـا العاليـة
حيث يراقب السائحـونَ
بليراتٍ قليلةٍ
حدائـقَ البابا ،
لهذه الشوارع المكتظـة ِباللـذةِ
والنبيـذِ
وشرائـحِ الجامبونِ
والتجوالِ المرهقْ ،
لهـذه الظهيرة الخرساءْ...

مـاذا أقـول ؟

مـوت رسـام

الفـتاةُ العميقـةُ العيـنينِ
والفـتى الجـوّالُ
وصيـادو الأسمـاكِ
وبائعو أوراقِ اليانصيبْ
ويتامى الحـربِ

والريفيون القادمون من كونٍ آخر
ومئاتُ الملامحِ
لوجوهٍ لم تكتملْ..
كلها
كانت
تحترقُ في عينيهْ

من عصر النهضة

أكل الناسُ أوراقَ الشجرْ
وباعت الفلاّحات حليهن الفضيّةْ
واختلط عويلُ المجلودينَ
بشتائمِ الجباةِ والملتزمينْ

كان صيارفةُ باريس ومالطا

ولندنَ
يدقّـون الأبـوابَ
حاملـين كوبونات الدين العامْ
وكان الطهطاوي
يكتب رائيتـهُ الشهيرةَ
في مديح القطـارْ ..

ياللبـذاءة !

عـرابـي

انطـوى مثل ورقـةِ نقـدٍ
في أعماقِ الريفْ
وحدهـا
تحنو عليهِ وتعرفـهُ
تلك الفلاحـةُ الأميّـةْ
تلك السواقـي الدائرةُ منذ الأزلْ
تلك الليـالي المضيئـةْ
في أرخبيلِ الموت اليوميّ

تلك الآيـةُ الناصـلةُ الحروفْ
في تراثٍ مهمـلْ

أكان عليـه
أن يخلـقَ شعبـاً
لايبصـق عليـه في المقاهـي
ودور اللهـو وحافلاتِ المترو
وصالاتِ الشراكسـةِ والألبـانْ ؟

ثورة الشريف الكبرى

إنحدرت القبائـلُ إلى الطرقِ الصحراويةْ
وعادت إلى مضاربهـا بالقتـلى
وغنائـمِ القاطـراتِ التركيـةْ
وأخبارِ قبيلـةِ لـورنـس
وجمـالهـا الشقراءْ

القصيدة

كاهنة مبلّلة
تتطاير حولها العصافيرْ
ويطقطق خشبُ الصنوبرِ
في نارها الحمراءْ

طيور

في الغسقِ المعتمِ
أطيارٌ خضراءْ
تزداد سواداً
وهي تطيرُ بعيداً
بين الأقواسِ
وأعمدةِ النورِ
وأشجارِ الأثلِ الصحراويةْ

مســـار

يقـودنـي الذيـن لا صـوتَ لهـم
ولا أسمـاءَ
غير مايبـتكرونَ
أو تبتـكر الشظيةْ
يقودنـي الأخـوةُ الذاهبـونَ
قبلُ وبعـدُ
ملايـين العصـورْ
في رجـرجـاتِ الفتوحِ
وصمـتِ الصخورِ
وهسـهسـاتِ العشبِ

والمطـرِ الخفيفْ
يقـودني العشــاقُ المـوتى
في ميـاهِ الليلِ
والأغـاني
وانسرابِ الوقتِ
وتمتـماتِ الأبجـديّةْ

لمـــاذا ؟

إذا ابتـسمَ الطفلُ في نومـــهِ
يقـولون مرّت غزالتـهُ
لتخبـر عن أمّـهِ
لماذا إذن
يكبـر الطفلُ
ينـمو
ويعدو وراء مدى بيتـهِ ؟
لماذا
يحـدّقُ في قلبـهِ ؟
ألأنّ الغزالةَ عادتْ
لتغـرقَ في دمـهِ ؟

لاجئــون

لا زهــرَ للنافــذةْ
لا موقــدَ للذكـرى
لا مائدةْ
لا سجادةً للصلاةْ
لا بيـتَ للطلاءْ
ولكنهـم يفرحـونَ
حين يولـد الطفلُ
أوتضيئ وجوهَـهم الحانيـةَ من حولـهِ
هالــةُ السـراج الوحيـدْ

بعد الطوفان (2)

القرى تضمحلُّ
والكائناتُ
تعود طيناً
في مكاتبِ الخدماتِ والتصديرْ
و المغنّي
يتلقط ظلَّ المداخلِ
و الضوءَ الهاربْ
والحياةَ الناطقة عن نفسها بالموتْ
باحثاً عن أرضٍ
يطلق عليها كلّ هذا العذابْ .

القصائد

أبنـــاء الأرض

1987- 1983

نشيدٌ من أجل أطفال شاتيلا

قالوا قصائدهم لأنفسهم
وبقيتَ مشتعلاً
قالوا مواعظهم لأنفسهم
وبقيتَ محتكماً
لألواحٍ من الصلصالِ
تشبهُ خبزكَ اليوميّ
من ألفٍ ومن ألفٍ
من السنواتِ
منذ اليومِ أنتَ نشيدنا
ورموزكَ العهدُ الجديدْ
يطوي المسافةَ
حكمةً قرويةً
تتأجلُ الأزمانُ فيها
والبنفسجُ والورودْ
من قالَ أن الثورةَ الحمراءَ
ترحلُ باتجاهِ البحرِ
جاريةً تمرّ على موائدهم ؟

روحي ترفّ على المياهِ
لتوقظ القتلى
وعشاقَ الحياةِ
وشهوةَ الميلادِ
من يشهد سوى الشهداءِ
حتى آخر الأبدِ الأبيدْ ؟
أنتَ النشيدُ
وبيتنا الطينيّ
ثوبُ نسائنا القروياتِ
لثغةُ طفلنا
في آخر الوقتِ الحزينِ
سويّةً نأتي
وننهضُ للقيامةِ والحروبِ
وفي الهزيمةِ
نستعيدُ دفاترَ الإنشاءِ
نبدأُ آيةً
ألفٌ وباءٌ
يبدأ التكوينُ من دمنا
والخلقُ
هاأحبابنا ذهبوا عميقاً في النقوشِ
وفي السنابلِ
لم يكونوا يملكون تذاكرَ الموتِ المؤجلِ
والإقامةَ في الفنادقِ
منذ أن كنّا
خُلقنا للرحيلِ بلحمها
نحنُ الجذورُ
وهم سلالاتُ البغايا والغزاةْ

*

أسرى
بقايا
بين أنقاضِ الحضاراتِ الحزينةِ
هكذا
في مطلعِ الأيامِ فاجأنا الغزاةُ
وأسلمونا للمذابحِ
والتجارةِ
والمتاحفِ
واليهودْ

دمنا الذي يجري
وتجري فيه قطعانُ الوعولِ يفرّ
من وطنٍ
إلى وطنٍ
وتشربهُ المضائقُ والحدودْ
في كلّ ناحيةٍ
بقايا عالمٍ ينهارُ فوق شعوبهِ
يأتي الدليلُ
وبعدهُ
يمضي الدليلُ
وتشربُ الأنقاضُ أسئلةَ الوجودْ
دولٌ تهيّئنا لأمريكا
مزارعَ
أو مقابرَ
أو عبيدْ
هل نحن في شعبٍ تموتُ جذورُهُ ؟
هل نحن آخر ومضةٍ
في الكوكبِ العربيّ
آخر حكمةٍ ؟
أم نحن من يشهدْ
على فجرِ الوجودْ ؟

*

الخلقُ ماءٌ
والأماكنُ ظلمةٌ
الآن أكتبُ خلسةً
هذا النشيدَ
ليخرج الشهداءُ من صبرا وشاتيلا
ومن عمقِ المغاورِ
والسجونْ
الآن أكتبُ خلسةً
هذا النشيدَ
ليهربَ الأطفالُ من أشعارهم
لهباً جميلاً ساحراً
في ليلنا الحجريّ
أغنيةً
لأرجوانٍ من جنونْ
الآن أكتبُ خلسةً

هذا النشيدَ
لأستوي بين العناصرِ
ذاهباً في نارِ شعبي
قادماً
من نارِ شعبي
للزمانِ طفولةٌ
ولشعبنا الممتدّ من صحرائهِ
حتى الحضارةِ
آيةٌ ..
أن يبدأَ الخلقَ الجديدْ

*

لغةٌ على الألواحِ
طينُ الخلقِ أتربةٌ
غبارٌ
والمحاربُ عائدٌ في اللوحِ محمولاً
على الأكتافِ
من هذا الممدّدُ في فضاءِ الأمهاتِ
وبين قطعانِ الوعولِ
موشحاً بالأرجوانِ وخضرةِ الوديانِ
ما هذي الجموعُ وضجّةُ الأطفالِ
تزحم لوحةَ التكوينِ
تغرقُ في الظلالِ
فلا تبين سوى الوصايا
والنذورِ
وأعينِ الأطفالِ
هل ذهبوا عميقاً في ظلالِ الفجرِ ؟
من هذا الممدّدُ
يستضيء بشعبهِ
بين المغاورِ والخيامِ
وحول أطرافِ العواصمِ
قادماً من نظرةِ الموتى
ومن ليلِ الولادةِ
غارقاً
في عمقِ هذا الليلِ
والتابوتْ ؟

*

الخلق ، ماءٌ
والأماكنُ ظلمةٌ
فلتوقظي يا أمّ نارك ِ
غادرَ الشعراء ، قبل دمائنا
بحثاً عن الشعبِ الملائمِ للقصائدِ
غادرَ الزعماء ،
قبل دمائنا
بحثاً عن الوطنِ الملائمِ للتجارةِ
لم نجد ما يشبه الأطفالَ يا أمّي
سوى الشهداءِ
ها شهداؤنا يستيقظونَ
ويخرجون من الحقائبِ
والمكاتبِ
لم يكونوا يملكون تذاكر الموتِ المؤجّلِ
والتحدّث عن مرايا البحرِ والفوضى
وحجمِ مقاعدِ القاعاتِ
ها شهداؤنا
يتمسكونَ بموتهم
بين السنابلِ والنقوشِ
ودهشةِ الأطفالِ
والأمثالِ
ينتظرونَ ..
في كلّ الجهاتِ أوامرٌ
بالقبضِ
والتعتيمِ
في كل الجهاتِ
يُطارَدُ الشهداءُ
يُعدَمُ كلّ من يؤوي شهيداً
أو يرافقَ صوتهُ ..
الخلقُ ماءٌ
والأماكنُ ظلمةٌ
فلتوقظي أطفالكِ الموتى
لأيامٍ من التكوينِ تبدأُ
في الحصارِ
من الحصارِ
إلى الحصارْ

(1983)

لأيــةِ أشجـارٍ نغـني ؟

كم صورةٍ لليلِ
تحدوها المسافةُ
والصليلُ ؟
الريحُ تنبئُ أن هذا الليلَ ومضٌ
والشباكَ مفازةٌ
والأرضَ أمزجةٌ
فيافي زوّجت أبناءها للريحِ
صخرٌ
يرقبُ الأحفادَ
سنبلةٌ
تفاجئ طائرَ الفجرِ الجميلْ
والليلُ يجري
في عروقِ الصخرِ
هل دمنا الذي يعدو
وتزحمـه الوعولُ
أم الفصولُ تئنّ
تهدأُ
تستقرّ
ونحن أيتام الفصولْ ؟
كم صورةٍ لليلِ تبعثُ وردةَ المعنى
فتبهجنا الأغاني
حيثما كنّا يكون الماءُ
تأخذنا الحدائقُ والصحارى
حيثما كنّا
تكون الشمسُ حاديةً

ونحن الأمتعـةْ
من قال أن سلالةَ المنفى تغيبُ
وتختفي في الزوبعةْ ؟
أسلافنا شجنٌ
على الأوراقِ
تنقيطٌ على الألواحِ
بالعربيةِ الفصحى
هو المنفى
ولكنّ المنافي
والحنينَ
طفولةٌ لليلِ
والبحرِ الجميلْ

(2)

كم صورةٍ للأرضِ ..؟
كلُّ طفولة الشطآنِ لا تكفي
لأغفر دمعنا
في مهمهِ التاريخِ
كلُّ سنابلِ الصحراءِ لا تكفي
لأغفرَ جوعنا في أغنياتِ البحرِ
هل دمنا الذي يعدو
أم الأرضُ استحالت ومضةً
والموتُ باباً
والطفولةُ زوبعةْ ؟
لا تغفروا للبحرِ والصحراءِ
كلُّ سفائن القتلى تمرّ
حصادُنا سفرٌ
قصائدُنا عويلْ
سنغيّر الأشياءَ حتى آخر الأقمارِ
لا قمرٌ سوى دمنا
ولا وطنٌ
سوى هذا الصليلْ
كم صورةٍ لليلِ ؟

قولوا صورةٌ أو صورتانِ
سيصدق الشعراء ‘
لو لمسوا سماءَ اللهِ
لو ذابوا
كماءِ النهرِ
في شفقِ الطفولةِ عاشقينْ

(3)

عدنا
حمولتُنا بلا مأوى
هناك شباكنا في الماءِ
ساهرةٌ
ولا تحملْ سوى أحبابنا
قتلى
لا تغفروا لليلِ والمنفى
لا تغفروا
للصوتِ والمعنى
ترجّلنا
وزوجنا لأغنيةٍ غراباً
لم تكن وجهاً لنا
(كل الجهاتِ خواصرٌ
كل النجومِ عرائسٌ ..)
كذبٌ
وصوتي شاهدٌ
لا سنبلٌ إلاّ وفوق هشيمهِ
دمعي
لا صورةٌ إلاّ
وتحت جدارها جسدي
فلتسألوا الأحياءَ عن جذرٍ
عن الأسلافِ
كيف تمزقوا في دفترِ الذكرى
سنسألُ ما تكون

قيامة الرؤيا
هي صورةٌ أو صورتانِ
وثم ثالثةٌ
ونبصقُ مرّةً أخرى
على هذي المقاعدِ
والسجاجيدِ الأنيقةِ
نحن غيمٌ صاعدٌ للأرضِ
أمزجةٌ
تعيد الخلقَ طيناً
مرّةً أخرى

(4)

الليلُ يجري في عروقِ الصخرِ
من يشهد لطيرٍ
يستعيدُ قيامةَ الطيرِ ؟
لحديقةٍ تمضي وراء خضارها
في وحشةِ العمرِ ؟
لسفائنٍ تأتي
تجرّ وراءها صفصافةَ البحرِ ؟
هو لغزنا العاصي على الحكماءِ
داروا حولهُ
ورموه في جبٍ على طرقِ القوافلِ
وادّعوا
أن الطيورَ خرافةٌ
والأغنياتِ متاهةٌ
يا بحرُ
يا صحراءُ
هل عرفوا
بأن دماءنا طرقٌ
وأبناءَ اليتامى زوبعةْ ؟
دمنا الذي يعدو
وتزحمه الوعولُ كأنما

نزلت بهِ سورٌ
وتاه الخلقُ
وانتبهوا لصوتِ الواقعةْ
من نحن ؟
صلصالُ الشعوبِ
وملحها
لسنا هنالك أو هنا
حتى نحاصرُ في شقوقِ الأنظمةْ
لسنا على ورقِ الجرائدِ
كي نموتَ
مع انقطاع الكهرباءِ
وشحّةِ البترولِ
في هذي الفيافي المظلمةْ
نحن الجذورُ تزوّجتْ كل المواسمِ
نحن آياتٌ
ترتلها الفصولُ
وكلّ فصلٍ ملحمةْ .

(1985)

آخـــر القـرطـاجيين

أنتِ أرضٌ
سيولٌ
جبالٌ
زمانٌ
حدائقُ تمضي
ولا تصلُ
أنتِ ظلٌّ لباديةِ الروحِ
نقشٌ
على الصخرِ
هجرةُ أسلافنا
في الهلالِ الخصيبِ
يرافق أيامَهم حَجَلُ
نحنُ ؟
من نحنُ ؟
أذكرُ ظلاً تقاصرَ منذ الطفولةِ
ما عدتُ ألقاهُ
أذكرُ صوتي يسير ُمناخاً
يحيطكِ شيئاً فشيئاً
ولا يصلُ
نحنُ ؟
من نحنُ ؟
غصنُ العذابِ الأخيرِ
أم الأبجديّةْ ؟
أم قطا يستظلُ بفيءِ الشقوقِ
تهجّجهُ الصرخةُ الهمجيّةْ ؟
ونفرٌّ إليكِ ومنكِ
فيأخذنا شاعرٌ للحصارِ
ويقذفنا قائدٌ في حقولِ البكاءِ

ويلصقنا كاتبٌ
في تقاويمهِ السنويةْ
آخر الجندِ نحنُ
على طرفِ الأرضِ نحنُ
أبيدت معاقلنا
أسلمتنا لأعدائنا الرومِ قرطاجُ
أين سنكتب أسماءَنا ؟
في النبوءاتِ أم خربشاتِ الطفولةِ
أم فوق مجرى السيولِ
ولا ظلَّ
لا ظلَّ يرسم أشكالنا
أو يعود إذا عاد يوماً
ربيعٌ بعيدْ ؟
مطرٌ وبكاءٌ
إلى آخرِ الأرضِ
والأرضُ ليلٌ وبيدْ .

*

أنتِ أرضٌ
ولكننا البيتُ والأفنيةْ
أنتِ أرضٌ
ولكننا الماءُ والأغنيةْ
عربٌ في المتاهِ
لهم نكهة الشعرِ والطينِ
هل ضلّلتنا طيورُ
وآلهةٌ من خشبْ ؟
آخرُ الأرضِ
ثم تحلّ الأساطيرُ
و الليلُ
و التائهونَ
ويسكن طفلُ التعبْ
ويودُّ الفتى
لو تحوّلَ بيتاً هنا
أو حجرْ
لو تهبّ الجموعُ

حصى غابةٍ أو شجرْ
آخرُ الأرضِ
والأصدقاءِ
وآخرُ صوتٍ نما في الشقوقِ
بلونِ المطرْ
ما الذي يأخذ القلبَ
والصبواتِ
ويجمعُ في بغتةٍ
بين ماءٍ وموتْ ؟
ما الذي يستفيقَ بلونِ الضبابِ
وصوتِ النواقيسِ
يضرب أيامنا دون صوتْ ؟

*

نحنُ ؟
من نحنُ ؟
نقشٌ على الصخرِ
أم ومضةٌ في الزمانْ ؟
أم فلولٌ
ورؤيا نبيّ مهانْ ؟
نسألُ الشرقَ عن بدئنا
نسألُ الغربَ عن ظلّنا
في المكانْ ؟
هاهو النفطُ تولد منه الوحوشُ
وتلقي علينا بألغازها
هاهي الناقلاتُ أشدّ خلوداً من الرملِ
تلقي علينا بأشباحها
أيها الليلُ
ماذا نقولُ
وماذا نغني
لنوقظ أسلافنا ؟

*

حجلٌ صامتٌ
ونجيلٌ
يميلُ مع الريحِ
لا حانةٌ في الطريقْ
آخرُ الأرضِ
أو آخر الأسئلةْ
والرفاقُ رموزٌ
وصوتٌ
ترجّعه الأمثلةْ
ويودّ الفتى
لو يغادر أحلامه
عائداً
يتناهبه البرقُ
أو يحتويه الحريقْ
ويودّ الفتى
لو تحوّلَ بيتاً هنا
أو مسيلْ

*

آخر العمرِ
قرطاجةُ العربِ
قطعةٌ من نقودٍ
يظللها قلمٌ
وصبي
غادرتها السفائنُ
عادت إليها السفائنُ
وهو المسافرُ بين الجزائرِ موجاً
بلا نسبِ
أين قرطاجُ ؟
وجهٌ يباغته البحرُ
عشبٌ يميلُ
يحاصرها الرومُ حتى الأقاصي
أين قرطاجُ ؟

أغنيةٌ
سورةٌ من ظلالٍ
ورسمٌ على ورقٍ
وحنانٌ
بلا سببِ
آخر الجند نحنُ
وآخر برقٍ مبادٍ
وآخر دمعٍ
يطوّقُ قرطاجةَ العربِ .

(1986)

ناجي العلي

أنتَ خلَّيتني في اللغاتِ جميلاً
أنتَ خلَّيتني
ومضيتَ
أليس قليلاً إذا ما انزوى الموتُ عنا
أليس قليلا ؟
أيها المدهشُ المتجاهلُ أن لنا موعداً
في التقاويمِ
أبسطَ ممّا اجترحتَ
لماذا تغيّرَ كوني
وتطلعَ مثل مناخٍ جديدٍ على الأرضِ
تمحو
وتمحو
وتوجز حتى يصير المقدّسُ
جرحاً طويلا ؟
أنت خلَّيتني في العراءِ وحيداً
وسمّيتَ
حتى تخيّلتُ أرضاً سوى الأرضِ
شعباً سوى الشعبِ
حتى تعدّدتُ مثلكَ
عدتُ جميلاً كما لم أكنْ
ذات يومٍ جميلا ..

يا ندى البسطاءِ
ولونَ البلادِ البعيدةِ
والنارِ
وهي تقاوم جيلاً فجيلا
أيها الأبيضُ المطلقُ المستثارُ
إذا ارتبك العارفون
وأضحى الرماديُّ
عصراً طويلا
أيها الغجريُّ الذي طاردته القبائلُ باسمِ الأفولِ
فهيّأ فجراً لنا
وأصيلا
أيها الغجريُّ الذي لم تكن قبله لغةٌ للجمالِ
ولا لغة للبهاءِ
وكان اختلاطٌ
على مسرحِ الكائناتِ

يسيّدُ ضبعاً
ويرفعُ فيلا
وحدكَ الآن في قفصِ الكائناتِ
تراقبُ عصراً
ذليلا
وحدكَ الآن تفضح كذبَ الرواةِ
وتغري بعصرِ المسوخِ الحجارةَ
والمستحيلا
كنتَ حلماً
وواصلتَ حلمكَ حتى نهايتهِ
قاتلاً أو قتيلا
لم تصلْ ..
كيف لي أن أكونُ شهيداً
وحيداً
على بذرةٍ
تستقرُّ بها أمةٌ
وضميرٍ
يودّعُ جيلا ويبعثُ جيلا ؟

(1987)

القصائد

للشـــــــــاعر

* الأعمال الشعرية :

1- الغناء في أقبية عميقة (الطبعة الأولى)، سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1974

2- حاولتُ رسمكِ في جسدِ البحر (الطبعة الأولى)، دار الطليعة، الكويت، 1976
3- لساحلكَ الآن تأتي الطيور (الطبعة الأولى)، دار بن رشد، بيروت، 1980
4- مملكة الأمثال (الطبعة الأولى)، دار العودة، بيروت، 1986

* الأعمال النقدية :

1- مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980
2- الفن التشكيلي الفلسطيني، دار الحوار، دمشق، 1985
3- بحثا عن الحداثة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986

* دراسات في الآثار:

1- مستشرقون في علم الاثار: كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ، مسعى (الكويت) & الدارالعربية للعلوم ناشرون (بيروت)، 2009

* الأعمال الروائية :

1- أطفال الندى، دار رياض الريس، لندن، 1990
2- نص اللاجيء، مجلة العصور الجديدة، القاهرة، ديسمبر 1999
3- حدائق العاشق، دار العصور الجديدة، القاهرة، 2001
4- شجرة المسرات: سيرة بن فضلان السرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004
5- أطفال الندى (بالفرنسية)، دار آلبن ميشل، باريس، 2002
6-أطفال الندى (باليونانية)، دار الكساندرية، أثينا، 2003
7- أطفال الندى (بالبرتغالية)، كامبو داز ليتراس، لشبونة، 2005
8- أطفال الندى (بالعبرية)، دار بارديس، حيفا، 2005
9- أصوات الصمت، مسعى (الكويت) & الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، 2009

* السيرة الذاتية :

1- أبعد من الجدران: لاجيء فلسطيني وإسرائيلي يعودان إلى زيارة تاريخهما، محمد الأسعد & ويوسف الغازي (بالفرنسية)،تحرير فرانسواز جيرمين ،دار آكت سود & سندباد ، باريس ،2005

* الترجمات :

1- بعد السقوط (مسرحية)، آرثر ميلر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة المسرح العالمي، الكويت، فبراير 1998
2- واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق: دراسة في جماليات قصيدة الهايكو مع شواهد مختارة، كينيث ياسودا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة إبداعات عالمية، الكويت، 1999
3- ست وصايا للألفية القادمة (محاضرات)، إيتالو كالفينو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة إبداعات عالمية، الكويت، ديسمبر 1999

كلمة على الغلاف الأخير

تجنب محمد الأسعد تجنبا تاماً شراكَ وإغراءِ الطرازِ الشعريِّ الشائع ، وظلّ موالياً لشكلٍ من أشكال التعبير يتوافر على قدرٍ عالٍ من الإنضباط الذاتي . إنه شاعرٌ يمتلكً تكاملا فنياً عظيماً، وغريزةً شعريةً لاتعرف التعثر مكّنته من الحفاظِ على رؤيته الشفافةِ الخاصة به خلال مرحلة

السبعينات الهائجة ، ومن الإبقاء على الحدود ِ اللسانية ِ والمجازيةِ مغلقة ً بصلابةٍ في وجهِ الرطانةِ ونزعةِ المغامرةِ الزائفة .

إن شعره المطبوع َ بطوابع ِ رصانة ٍ رفيعة ٍ ولغة ٍ تماثل جدّتها طبيعيتها ، ليشهد بوضوح ٍ على الطريقةِ التي يعمل بها الفن ُ بغريزة ٍ إبداعية لدى أفراد ٍ قليلين . مجال ُ الفنِ محدّد ٌ لدى بعض الشعراء ، ويمكن التعرّف على حدوده ِ غريزيا ً ، إلا ّ أنه مجال ٌ بالغ الهشاشةِ أيضا ً ، ويمكن أن يُنتهك تكامله كما رأينا دائما ً إذا أظهر َ الشاعر ُ ما ينبيء عن الإستجابةِ
لدعوة ِالإلتزام الإجتماعي_السياسي الصاخبة ، وهنا يجب أن نسارع إلى القول أنه لايوجد شاعر ٌ أكثر التزاما ً من الأسعد ؛ إن طبيعة حساسيته ذاتها تنبع من واقعة ِ النفي الدائم ، ومن الظلم ِ المستمر ، ومن انتقاص ِ الكوامن التي تتضمنها جنسيته الفلسطينية ، إلاّ أن عمله الشعري في الوقت نفسه لدليل بارز ٌ على أن التقنية الشعرية لاتُستمد من ثيمات ِ موضوع الإنشغال ِ الشعري بالضرورة ، بل تنبع من تركيبة ِ الشاعر الفنية ووضعيته ، ومن القدر ِ الذي تقاوم فيه حساسية ُ الشاعر مساومات ِ العصر ِ التي تنتحل صفات الجاذبية الفنية أو تخضع لها .
لقد رفض الأسعد ُ رفضا ً تاما ً خلال مرحلة الهيجان ، برصانته ِ الصافية وتحفظاته ِ الفنية ، كلَّ التوقعات ِ الإجتماعية " الشرعية " للمرحلة ِ وواصل تطوير فنه .

د . سلمى الخضراء الجيوسي
(مختارات الأدب الفلسطيني المعاصر ، مطبعة جامعة
كولومبيا ، نيويورك ، 1992)